

## الفصل الثاني والعشرون

سبينوزا

١٦٣٢ - ١٦٧٧

١ - الهرطيق الصغير

ان هذه الشخصية الغربية المحببة التي بذلت في التاريخ الحديث أجراً محاولة للعثور على فلسفة يمكن أن تحل محل عقيدة دينية ذائعة ، ولدت في أمستردام في ٢٤ نوفمبر ١٦٣٢ . ويمكن تتبع أسلافه الى مدينة سبينوزا بالقرب من برجوس في مقاطعة ليون الاسبانية . وكانوا يهودا ، ثم ارتدوا الى المسيحية فكان منهم العلماء والقساوسة ، وكان منهم كاردينال ديجو ، كبير المحققين يوما (١) . وهاجر جزء من الأسرة الى البرتغال ، والمفروض أنهم لجأوا الى الهجرة هرباً من محاكم التفتيش الاسبانية . وبعد فترة من الإقامة هناك في فيديجويرا بالقرب من باجه ، انتقل جد الفيلسوف ووالده الى نانت في فرنسا . ومنها في ١٥٩٣ الى أمستردام ، وكانا من أوائل اليهود الذين استوطنوا هذه المدينة ، تلهفا على التمتع بالحرية الدينية التي كفلها « اتحاد أوترخت » في ١٥٧٩ . وما جاءت سنة ١٦٢٨ حتى اعتبر الجد زعيم الجالية الصفرية « اليهودية » في أمستردام ، وكان الوالد في فترات مختلفة ناظراً للمدرسة اليهودية ، ورئيساً لصندوق الصدقات المنتظمة للجالية اليهودية البرتغالية . وقدمت الأم : حنه ديبورا دي سبينوزا من لشبونة الى أمستردام . وماتت عندما كان ابنها باروخ في السادسة من عمره . وأورثته السل . وتولى تربيته والده وزوجة ثالثة . ولما كانت لفظة باروخ تعنى في العبرية « المبارك » فقد سمي الصبي فيما بعد « بندكت » في الوثائق الرسمية اللاتينية .

وفي مدرسة الجالية اليهودية تلقى باروخ التعليم الدينى المؤلف المبني على التوراة والتلمود ، كما تلقى بعض الدراسات للفلاسفة الحبرانيين وعلى الأخص ابراهام بن عزرا ، وموسى بن ميمون وهاسداى

كريسكا ، وربما كان الى جانب هذا بعض اطلاق يسير على « القبالة » وكان من بين أساتذته اثنان من ذوى المكانة العالية والمقدرة فى الجالية: شاعول مورتيرا ، ومنشه بن اسرائيل . وتلقى باروخ ، بالأسبانية خارج المدرسة ، قدرا لا بأس به من العلوم الدنيوية ، لأن والده رغب أن يعده ليكون رجل أعمال . وبالإضافة الى اللغتين الاسبانية والعبرية تعلم البرتغالية والهولندية واللاتينية مع قدر يسير من الايطالية والفرنسية فيما بعد . ونما فى نفسه ولع بالرياضيات . وجعل الهندسة المثل الأعلى لمنهجه الفلسفى والفكرى .

وكان طبيعيا أن شابا بمثل هذا الذهن المتوقد بشكل فذ أن يثير بعض المشاكل حول النظريات والمبادئ التى تلقاها فى المدرسة اليهودية ، بل انه ربما سمع فى تلك المدرسة عن هرطقات عبرية . وكان ابن عزرا قد أشار منذ أمد طويل الى الصعاب التى تنطوى عليها نسبة الأجزاء المتأخرة من أسفار موسى الخمسة اليه . وكان اتباع ابن ميمون قد اقترحوا تفسيراً مجازياً لغير هذه الأجزاء من الكتاب المقدس ( ٢ ) . وأثاروا شيئاً من الشكوك حول الخلود الشخصى ( ٣ ) ، وحول الخلق باعتباره مناقضا لأزلية العالم ( ٤ ) . وكان كريسكاسي قد نسب الامتداد الى الله ، واستنكر كل المحاولات التى قامت لتثبيت بالعقل حرية الارادة وبقاء الروح بعد الموت ، بل حتى وجود الله . وبالإضافة الى هؤلاء اليهود التقليديين الى حد كبير ، لا بد أن سبينوزا قرأ ليفى بن جيرسون الذى كان قد هبط بمعجزات الكتاب المقدس الى مجرد أسباب طبيعية ، وأخضع الايمان للعقل قائلاً « ان التوراة لا يمكن أن تحول دون أن نعتبر حقا كل ما يستحطنا عقلا على أن نؤمن به أو نصدقه ( ٥ ) » وحديثا جدا فى جالية امستردام اليهودية هذه ، كان أوريل أكوستا قد اتخذى الاعتقاد فى الخلود ، فحز فى نفسه اصدار حكم الحرمان عقابا له وأطلق النار على نفسه ( ١٦٤٧ ) . ولا بد أن الذكرى الغامضة لهذه المأساة زادت من حدة الثورة التى تعتمل فى ذهن سبينوزا حين أحس بأن لاهوت عشيرته وأسرته العتيدي يفلت منه .

ومات أبوه فى ١٦٥٤ . وطالبت أخت له بكل الضيعة والثروة ، فقاضاها سبينوزا أمام المحكمة وكسب القضية ، ثم عاد ونزل لها عن كل التركة الا سريرا واحدا . واعتمد الآن على نفسه فكسب عيشه بالاشتغال

يشحذ العدسات وصقلها من أجل النظارات والمجهر والمقراب . وبالإضافة الى القيام بتعليم بعض تلاميذ خصوصيين اشتغل بالتدريس فى مدرسة فرانس فان دن اند اللاتينية ، وهو يسوعى سابق ، حر التفكير كاتب روائى ثائر X . وهناك أتقن سبينوزا اللاتينية ، وربما حفزه فان دن اند الى دراسة ديكارت وبيكون وهوبز ، وربما اطلع الآن على « المجموعة اللاهوتية » لتوما الاكوينى . ويبدو أنه وقع فى غرام مع ابنة الناظر التى آثرت خطيبا أكثر ثراء ، ومبلغ علمنا أن سبينوزا لم يخط خطوة أخرى نحو الزواج .

وكان فى تلك الأثناء قد بدأ يفقد ايمانه . ويحتمل أنه قبل سن العشرين ، وبكل الألم والذعر اللذين تجلبهما التغيرات فى مثل هذه السن الى الأرواح المرهفة الحس ، كان قد قام ببعض أفكار مثيرة - أن المادة قد تكون جسم الله ، وقد تكون الملائكة أوهام الخيال ، وأن الكتاب المقدس لم يذكر شيئا عن الخلود ، وأن النفس متماثلة مع الحياة (٧) . وربما احتفظ بهذه الهرطقات المغرورة لنفسه لو أن أباه بقى على قيد الحياة ، بل ربما التزم الصمت حتى بعد موت أبيه ، لولا أن بعض أصدقائه أزعجوه بالأسئلة ، وبعد كثير من التردد اعترف لهم باهتزازات عقيدته وايمانه ، فوشوا به الى الكنيس .

وينبغى ألا يغيب عن الأذهان ما كثرت الاشارة اليه من أن زعماء الجالية اليهودية فى امستردام كانوا يجدون حرجا فى معالجة الهرطقات التى تهاجم أساسيات المسيحية واليهودية على حد سواء . ان اليهود فى الجمهورية الهولندية نعموا بتسامح دينى أنكرته عليهم سائر الأقطار المسيحية ، ولكن كان من الميسور حرمانهم منه ، اذا تسامحوا فيما بينهم فى أفكار تززع الأساس الدينى للأخلاق والنظام الاجتماعى . . وطبقا لما جاء فى سيرة حياة سبينوزا التى كتبها فى السنة التى مات فيها أحد اللاجئين الفرنسيين فى هولنده ، وهو جين مكسيمليان لوكاس ، أضاف الطلبة الذى أبلغوا عن شكوك باروخ - أضافوا كذبا وبهتانا اتهامه بأنه أبدى احتقاره للشعب اليهودى لاعتقاده بأنه شعب الله المختار بصفة خاصة وأن الله هو مؤلف شريعة موسى (٨) . ولسنا ندرى الى أى حد

---

X عمل فان دن اند أخيرا جاسوسا خاصا للهولنديين فى باريس ، وقبضت عليه الحكومة الفرنسية وأعدم شنقا (١٦٧٦) (٦) .

يمكن تصديق هذا الكلام . وعلى أية حال ، فلا بد أن زعماء اليهود كرهوا أي تمزق في العقيدة التي كانت في ذروة القوة كما كانت معينا لا ينضب من العزاء والسلوى لليهود طوال قرون الشقاء المرير .

واستدعى الأخبار سبينوزا وسلقوه بالسنة حداد لأنه خيب الآمال الكبار التي كان معلموه قد عقدوها على مستقبله في الجالية اليهودية وكان أحد هؤلاء المعلمين ، وهو منشه بن اسرائيل ، متغيبا في لندن . أما المعلم الآخر ، وهو شاعول مورتيرا ، فقد توسل الى الشاب أن يتخلى عن هرطقاته . وانصافا للأخبار ، يجدر بنا أن نذكر أن لوكاس ، برغم تعاطفه الشديد مع سبينوزا يسجل أنه عندما استرجع مورتيرا ذكرى العناية الفائقة التي أولاها تلميذه الأثير لديه في تعليمه اللغة العبرية ، « رد باروخ بأنه يسعده الآن ، مقابل ما بذله معلمه مورتيرا من جهد ، أن يعلمه كيف يصدر قرار الحرم ( الحرمان الدينى ) ( ٩ ) » ويبدو هذا منافيا الى أبعد حد لما نسمع عن طباع سبينوزا ، ولكن ينبغي ألا نترك لعواطفنا اختيار الدليل ، ( وخلافا لما قال شيشرون ) يندر أن يكون ثمة شيء بالغ غاية الحمق الا أمكنك أن تجده في حياة الفلاسفة .

وقيل ان زعماء الكنيس عرضوا على سبينوزا معاشا سنويا قدره ألف جولدن اذا هو وعد ألا يتخذ خطوة عدائية ضد اليهودية ، وحضر الى الكنيس من وقت لآخر ( ١٠ ) ، ويبدو أن الأخبار أصدروا ضده في بداية الأمر قرار « الحرم الأصغر » فقط ، وهو مجرد حرمانه من الاتصال بالجالية اليهودية لمدة ثلاثين يوما فقط ( ١١ ) . وقيل انه قبل هذا الحكم عن طيب خاطر قائلا « حسنا ، انهم أرغمونى على ألا أفعل شيئا ما كنت لأفعله بمحض ارادتى ( ١٢ ) » ، وربما كان بالفعل يعيش آنذاك خارج الحى اليهودى بالمدينة . وحاول أحد المتعصبين أن يقتله ، ولكن السلاح لم يصب الا سترته . وفى ٢٤ يوليه ١٦٥٦ أعلنت السلطات الدينية والمدنية فى الجالية اليهودية من فوق منبر الكنيس البرتغالى ، فى مهابة وكآبة ، « الحرم التام » لباروخ سبينوزا ، بما يقترن بذلك من اللعنات والمحظورات المعتادة : ألا يتحدث اليه أحد ولا يكتب اليه ، ولا يؤدى له أية خدمة ، ولا يقرأ كتاباته ، أو يقترب منه على مسافة أربعة أذرع ( ١٣ ) . وقصد مورتيرا الى السلطات الرسمية فى امستردام ، وأبلغها بالاتهامات وقرار الحرم ، وطلب اليها طرد سبينوزا من المدينة ،

فأصدرت حكمها بنفى سبينوزا لبضعة أشهر (١٤) ، فذهب الى قرية أودركيرك القريبة ، ولكنه سرعان ما عاد الى أمستردام .

وأكسبته معرفته باللاتينية عدة صداقات في دائرة محدودة من الطلبة تزعمهم لودفيك ميير وسيمون دي فريس ، وكان ميير حاصلاً على درجات جامعية في الفلسفة والطب ، ونشر في ١٦٦٦ « فلسفة تفسير الأسفار المقدسة » . وفيه أخضع الكتاب المقدس للعقل . وربما عكس هذا الكتاب آراء سبينوزا - أو أثر عليها . أما دي فريس فكان تاجراً ثرياً ناجحاً ، شديد الولع بسبينوزا الى حد أنه رغب في منحه ألفي فلورين ولكن الفيلسوف أبى . فلما أحس التاجر بدنو الأجل (١٦٦٧) وكان غير متزوج ، فانه عرض أن يكون سبينوزا وريثاً ، ولكنه أقنعه بأن يترك كل ثروته لأخ له . وقدم الأخ الشكور المعترف بجميل سبينوزا منحة سنوية قدرها ٥٠٠ فلورين ، ولكن سبينوزا اكتفى بثلاثمائة (١٥) . وكتب صديق آخر من أمستردام ، هو جوهان بوفميستر اليه « أحبني لأني أحبك من كل قلبي » (١٦) . وإلى جانب الفلسفة كانت الصداقة هي الأساس الرئيسي في دعم حياة سبينوزا . وكتب في إحدى رسائله:-

من بين كل الأشياء التي فوق طاقتي لا أقدر شيئاً أكثر من تقديرى لأن يكون لي شرف عقد أواصر الصداقة مع أناس يحبون الحقيقة في إخلاص ، فانه من بين الأشياء التي فوق طاقتنا ، ليس في العالم شيء يمكن أن نحبه في هدوء الا مثل هؤلاء الرجال (١٧) .

ولم يكن سبينوزا منعزلاً متقشفاً زاهداً كل العزلة والتقشف والزهد ، بل انه استحسن « جيد الطعام والشراب ، والتمتع بالجمال وتربية الازهار والاستماع الى الموسيقى والتردد على المسرح (١٨) » وفي إحدى هذه الزيارات كانت محاولة قتله . وكان عليه أن يظل يخشى اغتياله . ونقشت على خاتمه كلمة واحدة « حذار ١٩ » ولكنه أحب ، أكثر كثيراً من تلك المتع والتسلية ، بل حتى أكثر من الصداقات ، أحب العزلة والدراسة وهدوء الحياة البسيطة ، يقول بيل : « ان زيارات أصدقائه له كانت تفسد عليه تأملاته كثيراً (٢٠) » . ومن أجل ذلك هجر أمستردام ليقوم في قرية هادئة « وينزبرج » - ( مدينة على الراين )

— على مسافة ستة أميال من ليدن • واتخذت شيعة من أتباع ابن ميمون ( وهى تشبه الكويكرز ) مقرا لها فى تلك القرية • ولقى سبينوزا ترحيبا بين احدى اسرات هذه الجماعة •

وفى هذا المنزل المتواضع ، الذى يحتفظون به الآن باعتباره « متحف سبينوزا » كتب الفيلسوف عدة رسائل صغيرة والجزء الأول من « الأخلاق » • وفى ١٦٦٢ كتب « رسالة موجزة عن الله والانسان وسعادته » ، ولكنها كانت الى حد كبير انعكاسا لديكارت • والأكثر منها امتاعا وتشويقا رسالته عن « اصلاح العقل » التى طرحت جانبا دون اتمامها فى تلك السنة نفسها • وانا لنجد فى صفحاتها الأربعين عرضا مسبقا لفلسفة سبينوزا • وانا لنحس من أول عبارة فيها وحشة الرجل المنبوذ من المجتمع •

بعد أن علمتني التجربة أن كل الأشياء التى يكثر وقوعها فى الحياة العادية عقيمة غير ذات جدوى ، وحين رأيت أن كل الأشياء التى كنت أخشاها ، والتى خوفتني ، ليس فيها فى حد ذاتها شيء حسن أو سيء الا بقدر ما يتأثر الذهن بها ، فانى اعتزمت آخر الأمر أن أتحرى هل يمكن أن يوجد شيء حسن حقا ، وقادر على أن ينقل حسنه وخيره ، ويمكن أن يتأثر به الذهن الى حد استبعاد سائر الأشياء •

وأحس سبينوزا بأنه لا الثراء ولا الشهرة ولا الملذات الجسمية يمكن أن تفعل هذا ، وغالبا ما يختلط الاهتياج والأسى بهذه المباحج « ، وليس الاحب شيء خالد لا متناه هو الذى يغذى الذهن باللذة والمتعة . . . . مجردة من كل ألم ( ٢١ ) ، وربما أمكن أن يكتب هذا بقلم توماس كمبيس أو جاكوب يوم ، والحق انه بقى دائما فى سبينوزا اثاره أو حالة من التصوف ربما جاءت من القبالة ، والآن غذتها عزلته وزادتها قوة ، ان الخير الخالد اللامتناهى « فى ذهنه يمكن أن يسمى « الله » ولكن فقط فى تعريف سبينوزا الأخير للاله باعتباره ذا طبيعة لها قدراتها الخلاقة وقوانينها • ويقول كتاب « اصلاح العقل » : « الخير الأعظم هو معرفة اتحاد الذهن مع الطبيعة بأسرها . . .

وكلما ازداد الذهن فهما لنظام الطبيعة ، ازدادت قدرته على التحرر من الأشياء العقيمة غير المجدية (٢٢) « . وهنا نجد أول تعبير لسبينوزا عن « الحب العقلي لله » - التوفيق بين الفرد وبين طبيعة الأشياء وقوانين الكون .

وهذه الرسالة البليغة الموجزة تبين كذلك هدف تفكير سبينوزا وفهمه للعلم والفلسفة « ، بوى أن أوجه كل العلوم الى وجهة واحدة أو غاية واحدة هي بالذات ، الوصول الى أقصى درجة ممكنة من الكمال الانسانى ، ومن ثم ينبغى نبذ أى شي فى العلوم لا يسعى لهذه الغاية ، باعتباره عقيما غير مجد (٢٣) « . وهنا نجد اتجاها مختلفا كل الاختلاف عما سمعنا من فرانسيس بيكون ، أن تقدم العلوم يكون وهما وخداعا اذا أدت الى مجرد زيادة سيطرة الانسان على الأشياء ، دون تحسين أخلاقه ورغباته . وهذا هو السبب فى تسمية « تحفة » الفلسفة الحديثة « بالأخلاق » على الرغم من مقدمتها الميتافيزيقية الطويلة ، وأن دثيرا منها سوف يحلل استرقاق رغبات الانسان له ، ونحرره عن طريق العقل .

## ٢ - اللاهوت والسياسة

ترامى الى أسمع الطلبة الشبان الذين تركهم سبينوزا وراءه فى أمستردام ، أنه كان قد شرع ، من أجل تلميذ فى راينزبرج ، فى ترجمة هندسية لكتاب ديكارت « المبادئ الفلسفية » . وألحوا عليه فى اكمالها وارسالها اليهم ، ففعل ، ودفعوا هم نفقات طبعتها (١٦٦٣) . بعنوان « عرض المبادئ الفلسفية لديكارت على أساس هندسي » . ويهمننا أن نذكر عنها ثلاث نقاط : أنها عبرت عن آراء ديكارت ( فى الارادة الحرة مثلا ) لا عن آراء سبينوزا ، وأنها الكتاب الوحيد الذى طبع فى حياة سبينوزا حاملا اسمه . وأنه فى جزء ملحق بها « تفكير ميتافيزيقى » ، قال سبينوزا بأن الزمن ليس حقيقة موضوعية بل طريقة تفكير (٢٤) ، وهذا واحد من عناصر « كانت » فى فلسفة سبينوزا .

وكسب سبينوزا فى راينزبرج أصدقاء جدد ، فقد تعرف عليه هناك عالم التشريح العظيم ستينو . وكان هنرى أولدنبرج عضو

الجمعية الملكية قاصدا الى لندن ١٦٦١ ، فحاد عن طريقه المرسوم ليزور سبينوزا ، وكان لذلك وقع شديد فى نفسه ، ولدى عودته الى لندن بدأت مراسلات طويلة بينه وبين الفيلسوف الذى لم تكن مؤلفاته قد طبعت بعد ، بيد أنه كان ذا شهرة واسعة . وثمة صديق آخر من راينزبرج أوريان كورباچ ، استدعى للمثول أمام احدى محاكم أمستردام (١٦٦٨) بتهمة دأبة على معارضة اللاهوت السائد ، وسعى أحد القضاة الى توريط سبينوزا فى القضية باعتباره مصدر هرطقة كورباچ ، ولكن هذا أنكر أية علاقة لسبينوزا بالامر ، فأنقذ الفيلسوف . ولكن حكم على المهترطق الشاب بالسجن عشر سنين ، حيث قضى نحبه بعد أن أمضى فيه خمسة عشر شهرا . ومن هنا ندرك لماذا لم يتعجل سبينوزا طبع مؤلفاته .

وفى يونيه ١٦٦٣ انتقل الى فوربورج قرب لاهاى . وأقام لمدة ستة أعوام فى بيت أحد الفنانين يصقل العدسات ، ويؤلف « الأخلاق » . وكانت المقاطعات المتحدة فى حرب دفاعية مستميتة ضد لويس الرابع عشر ، وقد أزعج هذا الحكومة الهولندية ودعاها الى فرض قيود أشد صرامة على حرية التعبير عن الآراء . ومع ذلك نشر سبينوزا فى ١٦٧٠ ، دون الافصاح عن اسمه « رسالة اللاهوت والسياسة » أصبحت حدثا أو معلما هاما من معالم نقد الأسفار المقدسة ، وأوضحت صحيفة العنوان فى رسالة اللاهوت والسياسة « الغرض منها » : وهو ايضاح انه يمكن منح حرية الفكر والكلام دون تحيز للدين والسلام العام ، كما انه يمكن كذلك عدم كبت هذه الحرية دون تعريض الدين والسلام العام للخطر . وتنصل سبينوزا من الالحاد وأنكره ، وأيد أساسيات العقيدة الدينية . ولكنه أخذ على عاتقه اظهار قابلية الانسان للخطأ فى هذه الأسفار المقدسة ، وهى ما بنى عليه رجال الدين الكلفنيون لاهوتهم تعصبهم ، وكان رجال الدين فى هولنده يستخدمون نفوذهم ونصوص الكتب المقدسة لمناهضة الجماعة التى تزعمها « دى ويت » والتى أيدت الفكر المتحرر ومفاوضات السلام ، وكان سبينوزا مخلصا أشد الاخلاص لهذه الجماعة ولجان دى ويت :

مذ رأيت الخلافات الحادة التى تشبت بين الفلاسفة فى الكنيسة والدولة ، وهى مصدر الكراهية المريرة والانشقاق

...فانى اعترمت أن أتناول بالبحث من جديد ، الكتاب المقدس ، بدقة وروح غير متحيزة ، طليقة غير مقيدة ، دون أن أضغ افتراضات أو نظريات لا أرى بوضوح أنها موجودة فيه . ومع هذه الاحتياطات وضعت طريقة لتفسير الأسفار المقدسة (٢٦) .

ان سبينوزا تنبه الى صعوبة فهم لغة العهد القديم العبرية وضرب ذلك أمثلة ، فان النص المازورى - الذى زود بالحروف اللينة وحركات النطق التى أهملها ناسخو التوراة الأصليون كان حدسا وتخميننا الى حد ما ، ولا يكاد يوفر نموذجا أصليا موثوقا لا يقبل الجدل ، واستفاد فى الفصول الأولى من هذه الرسالة كثيرا من رسالة ابن ميمون « دليل الحيران » . وحذا حذو ابراهام بن عزرا وآخرين فى الارتياح فى تأليف موسي للأسفار الخمسة الأولى . وأنكر أن يشوع هو الذى ألف سفر يشوع ، ونسب الأجزاء التاريخية فى العهد القديم الى القسيس الكاتب عزرا فى القرن الخامس قبل الميلاد . أما سفر أيوب فقد ذهب الى أنه كان من عمل الأمميين ( الكفار ) ثم ترجم الى العبرية . ولم تلق كل هذه النتائج قبولا لدى الباحثين المتأخرين ، ولكنها كانت خطوة جريئة نحو التعرف على ريتشارد سيمون ١٦٧٨ تحت عنوان « نقد العهد القديم » . وأوضح سبينوزا أنه فى حالات كثيرة ، تكررت نفس القصة أو القطعة فى مواضع مختلفة من الكتاب المقدس ، بنفس الألفاظ أو فى روايات محرفة ، توحى احداها بالاعتباس العادى من مخطوطة قديمة ، وتثير أخرى التساؤل عن بيان « كلمة الله (٢٧) » وكانت هناك استحقاقات وتناقضات من حيث التوقيت الزمنى ، وفى رسالة بولس الرسول الى الرومان ( ٣ : ٢٠ - ٢٨ ) لقنهم أن خلاص الانسان يمكن أن يكون بالايمان وحده لا بالعمل ، ولكن رسالة بولس جيمس ( ٢ : ٢٤ ) أوردت نقيض هذا على خط مستقيم ، فأيهما تتفق مع « كلمة الله وتوجيهه » ؟ وأشار الفيلسوف الى أن مثل هذه النصوص المتباينة قد خلقت بين رجال اللاهوت صراعات مريرة أشد المرارة ، بل دامية ، بدلا من السلوك القويم الذى يحث عليه الدين .

وهل أنبياء العهد القديم صوت الله ؟ . واضح أنهم لم يتفوقوا

من حيث المعرفة على الطبقات المثقفة فى زمانهم ، فان يشوع ، على سبيل المثال ، كان يسلم تسليما جازما بأن الشمس ، حتى « أوقفها » يشوع ، كانت تدور حول الأرض (٢٨) . ولم يتفوق هؤلاء الأنبياء فى العلم ، بل برزوا فى قوة الخيال والحماسة والغيرة والشعور ، كانوا شعراء وخطباء عظاما . ومن الجائز أن الوحي نزل عليهم من عند الله واذا كان الأمر كذلك ، فان عملية الوحي قد تكون تمت بطريقة اعترف سبينوزا بعجزه عن ادراكها (٢٩) . وربما حلموا بأنهم رأوا الله ، وربما اعتقدوا فى صحة أحلامهم . فانا نقرأ «أبيمالك» أن الله جاء اليه فى حلم الليل « سفر التكوين ٢٠ : ٦ ) . ان «العنصر الالهى فى الأنبياء ليس نبوءاتهم ، بل حياتهم الفاضلة ، والفكرة الرئيسية فى عظاتهم هى أن الدين يكمن فى السلوك القويم ، لا فى الطقوس المرهقة .

وهل كانت المعجزات التى دونت فى الكتاب المقدس اضطرابات حقيقية فى مجرى الطبيعة العادى ؟ وهل أدت خطايا البشر الى الحريق والفيضان ؟ وهل أتت صلواتهم ودعواتهم بخصوبة الأرض ؟ ذهب سبينوزا الى أن مثل هذه القصص استخدمها مؤلفو الأسفار المقدسة لينفذوا الى أفهام البسطاء من الناس ويحثوهم على الفضيلة والتقوى ، ويجدر بنا ألا نأخذها بحروفها :

ومن ثم ، فاننا ، حين يقول الكتاب المقدس بأن الأرض مجدبة بسبب خطايا البشر ، أو أن الايمان يبرىء الأعمى ، يجدر بنا ألا نعير هذا التفاتا أكثر من التفاتنا الى قوله ، أى الكتاب المقدس ، بأن الرب غاضب على خطايا البشر . وأنه حزين وأنه نادم على وعد أو فعل من خير ، أو أنه عند رؤية علامة يتذكر شيئا كان قد وعد به ، فان هذه التعبيرات وأضرابها اما أنها ألقيت القاء اشاعريا ، أى من قبيل خيال الشعراء ، أو رويت وفقا لأراء الكاتب وأهوائه . وينبغى أن نكون على يقين ، كل اليقين من أن كل شيء وصفته الأسفار المقدسة وصفا صادقا حقيقيا ، حدث حتما - مثل سائر الأشياء - وفقا للقانون الطبيعى ، وأن شيئا دون فيها مما يمكن اثباته على أسس موضوعة تتنافى مع نظام الطبيعة أو يتعذر استنتاجه منها ، فانه يجدر بنا أن نؤمن

بأنه مدسوس على الأسفار المقدسة عن طريق أيد مارقة عن الدين . فان أى شيء مناقض للطبيعة مناقض للعقل ، وأى شيء مناف للعقل سخيف مضحك ( ٣٠ ) .

وربما كان هذا أصرح اعلان لاستقلال العقل وضعه فيلسوف حديث بعد . وبقدر ما حاز هذا الاعلان قبولا ، فانه انطوى على ثورة ذات معنى ونتائج أعمق من كل حروب ذلك العصر وسياسته .

بأى معنى اذن يكون الكتاب المقدس « كلمة الله ؟ » . بهذا المعنى وحده ، وهو أنه يحتوى على قانون أخلاقى يربط الناس بالفضيلة . انه يحتوى كذلك على أشياء كثيرة أدت الى نزعة شديدة الى الشرفى الانسان - أو هيات لها ، وبالنسبة للكثرة الكثيرة من الناس المرهقين الى حد كبير بمشاغلهم اليومية الى درجة أنهم لا يجدون فراغا أو قدرة على تنمية عقولهم ، يمكن أن تكون قصص الكتاب المقدس خير عون لهم على التمسك بالأخلاق الفاضلة . ولكن التعليم الدينى يجب أن يتركز على السلوك لا على العقيدة . ويكفى أن تقتصر العقيدة على الايمان « بوجود الله ، كائن أسمى يحب العدل والاحسان » ، وخير عبادة له هى معاملة الجار بالعدل والانصاف وحبسه . ولا ضرورة لمبدأ آخر ( ٣١ ) .

والى جانب هذا المبدأ ينبغى أن يكون الفكر حرا ، ان الكتاب المقدس لم يقصد به أن يكون كتابا مدرسيا للعلوم أو الفلسفة ، فهذه العلوم والفلسفة مكشوفة أمام أعيننا فى الطبيعة ، وهذا الوحي الطبيعى هو أصدق وأشمل صوت الله .

ليس بين العقيدة أو اللاهوت وبين الفلسفة . . . . .  
أية علاقة أو صلة نسب . . . . . وليس للفلسفة غاية تصبو اليها  
الا الحقيقية ، أما العقيدة . . . . . فلا تفتش الا عن الطاعة  
والامتثال والتقوى . فالعقيدة اذن تهيب أعظم مدى  
للتأمل الفلسفى ، وتسمح لنا دون عتب أو ملام أن نفكر  
كيف نشاء فيما نشاء ، ولا تتهم بالهرطقة والانشقاق الا أولئك  
الذين يميلون الى اثاره الكراهية والغضب والنزاع ( ٣٢ ) .

وهكذا نرى سبينوزا فى تحوله المتفائل قد جدد تمييز بومبوناتزى

بين حقيقتين : اللاهوتية والفلسفية ويمكن أن تنهيا كل منهما ، برغم تناقضهما ، لشخص بعينه فى حالة كونه مواطنا ، ثم فى حالة كونه فيلسوفا وقد يجيز سبينوزا للموظفين الرسميين المدنيين حق فرض طاعة القوانين ، كما أن للدولة ، شأنها شأن الفرد ، الحق فى حماية ذاتها ، ولكنه يضيف :

ان الأمر بالنسبة للدين يختلف اختلافا كبيرا ، فمن حيث أنه لا يتألف من عمل ظاهرى بقدر ما يتألف من بساطة الخلق وصدقه ، فانه يقف خارج نطاق القانون والسلطة العامة . ان بساطة الخلق والصدق فيه لا تنتجها قيود القوانين ولا سلطة الدولة ، وليس ثمة فرد فى العالم بأسره يمكن أن يفرض عليه التنعم بالسعادة الروحية أو تسن له القوانين من أجلها . والوسيلة المطلوبة لتحقيق هذا هى النصح المخلص الأخوى والتعليم الصحيح ، وفوق كل شيء الاستخدام الحر للحكم أو الرأى الشخصي . . . ان فى مقدور كل انسان أن يستخدم بنجاح حقه العظيم فى حرية الرأى والحكم ، ويستخدم سلطته فى ذلك . . . وأن يشرح ويفسر الدين لنفسه ( ٣٣ ) .

وينبغى أن تخضع الممارسة العلنية للدين لرقابة الدولة . ذلك أنه على الرغم من أن الدين قد يكون عنصرا حيويا فى تشكيل الأخلاق ، فان الدولة يجب أن تكون صاحبة السلطان الأعلى فى كل الأمور التى تؤثر فى السلوك العام . وكان سبينوزا أرسطوسيا ( يقول بأن الدولة السلطة العليا فى الشؤون الكنسية ) عتيذا مثل هوبز ، وحذا حذوه فى اخضاع الكنيسة للدولة ، ولكنه حذر قراءة قائلا : « انى أتحدث هنا عن الشعائر الظاهرية فحسب . . . . . لاعتن . . . . . العبادة الباطنية ( ٣٤ ) » . وكان ناقما أشد النقمة ( وربما تمثل فى خاطره لويس الرابع عشر ) حينما استنكر استخدام الدولة للدين فى أغراض تتنافى مع مفهومه عن الديانة الأساسية العدل وعمل الخير .

إذا كان اللغز للغز الرهيب الأساسى فى الدولة الاستبدادية هو التفرير بالرعايا وتقنيع الخوف الذى يكبح جماحهم بلباس

خداع من الدين ، حتى يقاتل الناس من أجل العبودية  
بمثل البسالة التي يناضلون بها من أجل أمنهم وسلامتهم ،  
ولا يعتبرونه عارا بل شرفا كبيرا أن يبذلوا دماءهم وحياتهم  
رخيصة من أجل زهو وخيلاء وعظمة جوفاء ينعم بها طاغية  
جبار ، فانه فى الدولة الحرة يتعذر تدبير وسائل نفعية  
شريرة ، أو محاولة اللجوء اليها ، وأنه ليتعارض مع الحرية  
العامة كل التعارض ، أن ينفذ القانون الى مجال الفكر المتأمل  
وتتعرض الآراء للتحقيق والمساءلة ، وتوضع موضع  
الالتهام والعقاب مثل الجرائم سواء بسواء ، على حين يضحى  
بالمدافعين عنها وباتباعها ، لا من أجل الأمن والسلامة العامة ،  
بها على مذبح كراهية خصومها وقساوتهم . ولو أمكن اتخاذ  
الأعمال وحدها أساسا لتوجيه الاتهام بالجرائم ، وأطلقت  
حرية القول . . . لتجرد التحريض على الفتنة من أية شبهة  
لتبريره ، ولأمكن الفصل بينه وبين مجرد الخلاف فضلا  
شديدا ( ٣٥ ) .

وواجه سبينوزا أثناء دراسته الكتاب المقدس قضية الخلاف  
الأساسية بين المسيحيين واليهود . هل كانت المسيحية غير مخصصة  
للمسيح أو خائنة لعهدده حين نبذت شريعة موسى ؟ ومن رآه أن تلك  
الشريعة سنت لليهود فى نطاق دولتهم هم ، لا لأية أمم أخرى ، حتى  
ولا لليهود أنفسهم اذا كانوا يقيمون فى مجتمع غريب عنهم ، والقوانين  
الأخلاقية وحدها فى شريعة موسى ( مثل الوصايا العشر ) هى التى  
تتمتع بصلاحية أبدية عامة لكل زمان ومكان ( ٣٦ ) . وتنم بعض  
الأجزاء فى بحث سبينوزا فى اليهودية عن استياء شديد من صدور قرار  
« الحرم » ضده ، وعلى حرص شديد منه على تبرير نبذه لتعاليم  
الكنيس ، ولكنه انضم الى اليهود فيما يراودهم من أمل فى عودة عاجلة  
الى دولة مستقلة . « قد أذهب بعيدا الى حد الاعتقاد بأنهم . . .  
سيقيمون دولتهم من جديد ، وأن الله سيختارهم للمرة الثانية ( ٣٧ ) » .

وتناول المسيحية عدت مرات ، ووضح أنه قرأ العهد الجديد فى  
اعجاب متزايد بالمسيح . ونبذ فكرة قيامة المسيح بجسده من بين  
الأموات ( ٣٨ ) . ولكنه ألقى نفسه يتعاطف تعاطفا شديدا مع موعظة

يسوع الى حد أنه أقر بأن وحيًا خاصًا نزل عليه من عند الله :

ان انسانا يستطيع بفطرته النقية أن يدرك أفكارا ليست موجودة ، كما لا يمكن استنتاجها من أساس معرفتنا الطبيعية ، لا بد أنه بالضرورة يتمتع بعقل أسمى بكثير من عقول رفاقه ، بل انى لا أعتقد أن أحدا اختص بهذا غير المسيح ، وقد أوحيت اليه مباشرة أوامر الله التي تؤدي الى الخلاص ، بغير كلمات ولا رؤى . ومن ثم فإن الله كشف عن ذاته للرسول عن طريق عقل المسيح ، كما فعل من قبل مع موسى عن طريق الصوت الخارق للطبيعة . وبهذا المعنى يمكن أن يسمى صوت المسيح ، مثل الصوت الذى سمعه موسى - صوت الله - ، وقد يقال بأن حكمة الله ( وهى أسمى من حكمة البشر X ) ظهرت فى طبيعة المسيح البشرية ، وأن المسيح كان طريق الخلاص . وعند هذه النقطة لابد لى أن أعلن أن هذه النظريات ، التي تقدمها بعض الكنائس فيما يتعلق بالمسيح ، ليس فى وسعى أن أوكدتها أو أنفيها لأنى أعترف بكل صراحة أنى لا أفهمها . . . ان المسيح اتصل بالله عقلا لعقل وبناء على هذا يمكن أن نستخلص أنه لا أحد غير المسيح تلقى الوحي من الله ، دون عون من الخيال فى الكلمات أو الرؤى ( ٣٩ ) .

ان غصن الزيتون هذا ، الذى قدم الى الزعماء المسيحيين ، لم يكن ليخفى عنهم أن « الرسالة اللاهوتية السياسية » كانت من أجرا ما صدر من بيانات وآراء فى الصراع بين الدين والفلسفة . وما أن ظهرت الرسالة حتى احتج مجلس كنيسة امستردام ( ٣٠ يونية ١٦٧٠ ) ندى رئيس الدولة فى هولنده على السماح بتداول مثل هذا الكتاب المملوء بالهرطقة فى دولة مسيحية . وتوسل اليه أحد الجامع الكنسية فى لاهاي أن يلعن ويصادر « مثل هذه الكتب التي تعمل على تخريب النفوس ( ٤٠ ) » . وانضم النقاد العلمانيون الى الهجوم على سبينوزا . وسماه أحدهم « شيطانا مجسدا ( ٤١ ) » . ووصفه جان لى كلرك بأنه

X انظر « كتاب الحكمة » ، و « الكلمة - لوجوس » فى الانجيل الرابع .

« أشهر ملحد فى زماننا (٤٢) » . واتهمه لامبرت فان فلتوسن بأنه  
« يحتال فى مكر ودهاء على بث الالحاد . . . وتقويض أركان العبادة  
والديانة من أساسها (٤٣) » . ومن حسن حظ سبينوزا أن جان دى  
ويت رئيس الدولة كان من المعجبين به . وكان لفوره قد أجرى عليه  
معاشا ضئيلا ، وما دام دى ويت حيا متربعا فى دست الحكم ، فان  
سبينوزا كان فى مقدوره أن يعتمد على حمايته له . ولم تدم هذه الحماية  
لأكثر من عامين فقط .

### ٣ - الفيلسوف

فى مايو ١٦٧٠ ، بعد نشر الرسالة اللاهوتية السياسية بقليل ،  
انتقل سبينوزا الى لاهاي ، ربما ليكون على مقربة من دى ويت وغيره  
من الأصدقاء ذوى النفوذ . وأقام لمدة عام فى بيت « الأرملة فان  
فيلين » ، ثم انتقل الى دار هندريك فان درسبيك على بافليونجراشت ،  
وفى ١٩٢٧ اشترت لجنة دولية هذا المبنى ، واحتفظ به على أنه « مسكن  
سبينوزا » ، وبقي فيه الى آخر حياته . وشغل منه حجرة واحدة فى  
الطابق الأعلى ، ونام على سرير يمكن أثناء النهار أن يطوى الى  
حائط (٤٤) . ويقول بيل « وفى بعض الأحيان كان يقبع فى عقر الدار  
لا يخطو خارجها لمدة ثلاثة أشهر بأكملها » ، وربما أخافته رئتاه  
المسلولتان من رطوبة الشتاء . ولكن كان زواره كثيرين ، ومرة أخرى  
يقول بيل انه بين الحين والحين « كان يقصد الى زيارة نفر من ذوى  
المكانة والنفوذ . . . للتحدث معهم فى شئون الدولة التى كان يفهمها  
جيذا (٤٥) » . واستمر يشتغل بصقل العدسات ، وأطرى العالم  
الفيزيائى الرياضى كريستيان هيجينز درجة اتقائها (٤٦) . واحتفظ  
الفيلسوف ببيان عن نفقاته ، ومنه نعلم أنه عاش على نحو خمسة  
وعشرين سنتا فى اليوم ، وأصر أصدقاءه على مد يد المعونة له ، حيث  
لا بد أنهم رأوا أن اعتكافه فى الدار والغبار الذى ينتج عن صقل العدسات  
كانا يضاعفان من علته .

وانتهت الحماية التى بسطها دى ويت على سبينوزا حين اغتال  
بعض الرعاع الأخوين دى ويت فى شوارع لاهاي ( أغسطس ١٦٧٢ ) .  
ولم سمع نبأ اغتيالهما رغب فى مغادرة الدار ليعلن الى هؤلاء الرعاع

استنكاره لفعاليتهم باعتبارهم « أخط المتوحشين » ، ولكن صاحب الدار غلق الأبواب ومنعه من مغادرة الدار (٤٧) . وترك جان دى ويت لسبينوزا فى وصيته راتبا سنويا قدره مائتا فرنك (٤٨) X . وبعد موت دى ويت انتقلت السلطة المدنية الى الأمير وليم هنرى الذى كان فى حاجة الى تأييد رجال الدين الكلفنيين . ولما صدرت الطبعة الثانية من « الرسالة اللاهوتية السياسية ١٦٧٤ » ، أصدر الأمير ومجلس هولنده مرسوما يحظر بيع الكتاب ، وفى ١٦٧٥ أذاع مجلس الكلفنيين فى لاهاي بيانا يأمر فيه كل المواطنين بالابلاغ فورا عن أية محاولة لطبع أية مؤلفات لسبينوزا (٤٩) . وفيما بين عامى ١٦٥٠ و ١٦٨٠ - صدر من سلطات الكنيسة نحو ٥٠ مرسوما بتحريم قراءة مؤلفات الفيلسوف أو تداولها (٥٠) .

وربما ساعدت قرارات الحظر هذه على ذيوع شهرته فى ألمانيا ، وانجلترا وفرنسا . وفى ١٦ فبراير ١٦٧٣ كتب جوهان فابريشيوسى الأستاذ بجامعة هيدلبرج « الى الفيلسوف الأملعى المشهور بندقى سبينوزا ، باسم ناخب البالاتينات المتحرر ، الأمير شارل لويس :

طلب الى صاحب العظمة الأمير ، أن أكتب اليكم ..  
لأسألكم اذا كنتم ترغبون فى قبول منصب الأستاذية العادية للفلسفة فى جامعته الشهيرة . وسيعطيك الراتب السنوى الذى يتقاضاه الأساتذة العاديون الآن . انك لن تجد فى أى مكان آخر أميرا أشد ايثارا وأكثر عطفًا على العباقرة المرموقين الذين يعدك واحدا منهم . وسيكون لك مطلق الحرية فى اتخاذ أى اتجاه فلسفى يعتقد الأمير أنك لن تسيء استخدامه فى افساد جو الديانة الرسمية علانية .. ..

وأجاب سبينوزا فى ٣٠ مارس :

السيد الجليل ،

اذا كنت قد راودتني الرغبة يوما فى شغل منصب

---

X يرتاب بعض الباحثين فى معرفة سبينوزا بجان دى ويت . راجع كلارك - « القرن السابع عشر » ص : ٢٢٣ .

الأستاذية فى أية كلية ، لما رغبت فى منصب غير هذا الذى عرضه على ناخب البلاتينات المعظم عن طريقكم . ولما كنت على أية حال ، لم أفكر قط فى الاشتغال بالتعليم العام ، فإنه يصعب أن أقنع نفسى باغتنام هذه الفرصة العظيمة . . . .  
أولا لأنى أعتقد أنى اذا أردت أن أوفر الوقت اللازم لتعليم الشباب فلا بد أن أتخلى عن تنمية فلسفتى وتطويرها .  
ثانيا - لست أدرى ما هى حدود الفكر الفلسفى التى يجب أن أعمل فى نطاقها ، حتى أتجنب ظهور أية رغبة فى تعكير جو الديانة الرسمية المعلنة . فان الانشغالات والخلافات لا تثور نتيجة للحب الشديد للدين أكثر منها بسبب الميول والنزعات المتباينة فى الناس أو حب المعارضة والمخالفة فى الرأى . . . . ولقد خبرت هذه الأشياء بالفعل بينما كنت أعيش عيشة خاصة منعزلة ، ولا بد أن أكون أشد خشية من حدوثها ، اذا رقيت الى هذه المرتبة العظيمة ( الأستاذية ) .  
وهكذا ترى يا سيدى الجليل أنى لا أحجم ، أملا فى مال أكثر ، أو حظ أوفر ، ولكنه حب الهدوء والرغبة فى السلام ( ٥١ ) .

وكان سبينوزا سعيد الحظ فى رفضه هذا المنصب ، فان المارشال الفرنسى تورين اجتاح البلاتينات فى العام التالى وأغلقت أبواب الجامعة .

وفى مايو ١٦٧٣ ، وفى غمرة الهجوم الذى شنه جيش فرنسى على المقاطعات المتحدة تلقى سبينوزا دعوة من زعيم فى هذا الجيش لزيارة كوندية الكبير فى أوترخت . واستشار سبينوزا فى أمر هذه الزيارة السلطات الهولندية التى ربما رأت فيها فرصة لفتح باب المفاوضات لعقد هدنة تدعو اليها الحاجة الملحة . وأمن له الطرفان كلاهما سبل الانتقال ، وشق الفيلسوف طريقه الى أوترخت . وفى تلك الأثناء كان لويس الرابع عشر قد أرسل كوندية الى جهة أخرى . فبعث الى سبينوزا ( كما يروى لوكاس ) ( ٥٢ ) برسالة يطلب اليه فيها أن ينتظره ، وبعد بضعة أسابيع وصلت رسالة أخرى تقول انه سيتأخر الى أجل غير مسمى . والظاهر

أن مارشال دى لكسمبرج نصحه اذ ذاك أن يهدى الى الملك لويس كتابا ، مؤكدا له أنه سيلقى من الملك استجابة تتسم بالتحضر (٥٣) . ولم يؤد الاقتراح الى نتيجة . وعاد سبينوزا أدراجه الى لاهاي ليجد كثيرا من المواطنين يشتبهون فى أنه خائن . وتجمع حشد معاد حول بيته يكيلون السباب ويقذفون الأحجار . فقال لصاحب البيت « لا تنزعج ، فأنا برىء ، وهناك كثيرون من ذوى المناصب العالية يعرفون لماذا ذهبت الى أوترخت . وحالما تسمع أى صخب أو شغب عند الباب ، فسأخرج أنا الى الناس حتى ولو كانوا سيفعلون بى مثل ما فعلوا بجان دى ويت الطيب . أنا جمهورى مخلص أمين ، وهدفى خير الجمهورية (٥٤) ولم يدعه صاحب الدار يخرج . وتفرق الجمهور .

وكان سبينوزا آنذاك فى الحادية بعد الأربعين . وهناك فى مسكن سبينوزا فى لاهاي صورة تمثله نمطا دقيقا ليهودى سفرادى ، ذى شعر أسود متدل ، وحاجبين كثيفين ، وعينين سوداوين براقيتين مكتئبتين قليلا ، وأنف مستطيل مستقيم ، ووجه تغلب عليه الوسامة فى جملمته ، اذا قورن فقط بالصورة التى رسمها هالس لديكارت . ويقول لوكاس : « كان أنيقا غاية الاناقة فى مظهره ، ولم يغادر قط بيته دون أن يرتدى من الثياب ما يميز السيد المهذب الماجد عن المتحذلق (٥٥) . واتسم سلوكه بالرزانة والوقار مع الظرف والرقة . وقال أولدنبورج « ان علمه الراسخ اقترن بالروح الانسانية والدمائة (٥٦) » . وكتب بيل « ان كل الذين تعرفوا على سبينوزا يقولون بأنه كان اجتماعيا لطيف المعشر ، أمينا ، ودودا حسن الخلق (٥٧) » . ولم يتحدث الى جيرانه بأية هرطقة ، بل على العكس شجعهم على الاستمرار فى الذهاب الى الكنيسة ، ورافقهم من آن لآخر ليستمع الى موعظة (٥٨) . وكان أكثر من أى فيلسوف حديث آخر يتمتع بالهدوء الناجم عن ضبط النفس . وقلما رد على النقد ، وتناول فى رده الأفكار والآراء ، لا الأمور الشخصية . وعلى الرغم من اعتناقه مذهب الجبرية ، واقتلاعه من بين قومه ، ومرضه ، كان أبعد ما يكون عن التشاؤم ، وقال « تصرفا حسنا ، وابتهج وقر عينا (٥٩) » وربما كان شعار تفكيره أن يعرف أسوأ الأشياء ، ويؤمن بأحسنها .

وتردد الأصدقاء والمعجبون به على داره . وأقنعه والترفون

تشيرنهو بأن يطلعه على مخطوطه « الأخلاق » . وكتب اليه هذا العالم الرياضي الفيزيائي : « أرجو أن تساعدنى بلطفك المعهود حيثما أعجز عن فهم ما تقصد اليه فهما صحيحا (٦٠) . وربما تم وصول ليدنتز الى سبينوزا عن طريق هذا التلميذ المتلهف ( ١٦٧٦ ) ومن الجائز كذلك وصوله الى الرائعة التى لم تكن نشرت بعد . وقدم لرؤيته الأعضاء الباقون على قيد الحياة من ندوة دكتور ميير فى أمستردام أو كانوا يتبادلون معه الرسائل والقت رسائله من والى العلماء والباحثين فى أوروبا ضوءا غير متوقع على المناخ العقلى فى ذاك العصر . وحثه هوجوموكسلى مرارا وتكرارا على التسليم بحقيقة وجود الأرواح الشريرة والأشباح . وفى ١٦٧٥ أرسل اليه من فلورنسا عالم التشريح ستينو نداء مؤثرا ليتحول الى الكاثولة :

انى آخذ على عاتقى عن طيب خاطر ، اذا أردت أنت ، مهمة هدايتك الى الطريق . . . . وعلى الرغم من أن علمك يفوق علمنا ، فانى أود لو أنك تقدمت الى الله فبرئت من أخطائك ونبذتها ، حتى اذا كانت كتاباتك السابقة قد صرفت ألفا من الأنفس عن المعرفة الحقيقية لله ، فان رد هذه النفوس الى طريق الحق على أن تكون أنت قدوة تشد من أزرها ، قد يعيد الى الله ألف ألف معك ، كما لو كنت أوغسطين آخر أرجو من كل قلبى أن تحل بك هذه البركة والنعمة . وداعا (٦١) .

كذلك سحرت فتنة الكاثولة لب ألبرت بيرج ابن صديق سبينوزا كنراد بيرج وزير مالية المقاطعات المتحدة . وكان ألبرت ، مثل ستينو ، قد تحول الى الكاثوليكية أثناء رحلته فى ايطاليا . وفى سبتمبر ١٦٧٥ كتب الى سبينوزا متحديا ، أكثر منه متوسلا ، اياه أن يعتنق المذهب الكاثوليكي :

من أين لك أن تعرف أن فلسفتك هى أفضل التعاليم التى لقنت فى العالم فيما مضى ، أو أنها أفضل ما يتلقاه العالم الآن بالفعل ، أو ما سيتلقاه فى المستقبل ؟ هل درست كل الفلسفات قديمها وحديثها ، مما يتعلمه الناس هنا وفى الهند وفى سائر أصقاع المعمورة ؟ وحتى اذا كنت

درستها جميعا .. كيف يتسنى لك أن تدرك أنك اخترت أحسنها ؟ .. .. واذا كنت ، على أية حال ، لا تؤمن بالمسيح فانك أيأس وأجدر بالازدراء مما يمكن أن أصور لك . ولكن العلاج ميسور : ارجع عن خطاياك ، وتحقق من الغطرسة القاتلة التي ينطوى عليها تفكيرك الحقير المجنون .. .. هل تجسر أيها الرجل الحقير ، يا حشرة الأرض الدنيئة .. .. فى تجديدك الذى لا يصح أن يوصف ، أن تضع نفسك فوق « الحكمة المجسدة اللامتناهية » ؟ .. .. انك بقواعدك ومبادئك لا تستطيع أن تفسر تفسيراً كاملاً حتى واحداً من هذه الأشياء التي يأتى بها السحرة .. .. كما أنك لا تستطيع أن تفسر أياً من الظواهر المذهلة بين الذين يملكهم الشياطين ، مما رأيت منه بعيني رأسي أمثلة كثيرة منه أو سمعت صدق الأدلة اليقينية عليه (٦٢) .

وفى ديسمبر ١٦٧٥ رد سبينوزا رداً جزئياً :

أخيراً فهمت من كتابك ما لم أكن أكاد أصدقه حين رواه لى آخرون ... وهو أنك لم تصبح عضواً فى الكنيسة الكاثوليكية فحسب .. بل أنك كذلك من أشد أنصارها وحماتها غيرة وحماسة ، وأنت تعلمت الآن كيف تصب لعنتك وجام غضبك فى وقاحة على خصومك ومخالفيك . ولم أكن أعتزم الرد على رسالتك ... ولكن جماعة بعينها من الأصدقاء ، ممن علقوا أكبر الآمال على مواهبك الطبيعية ألحوا على فى الرجاء ألا أقصر فى حق صديق ، وأن أفكر فيما كنت عليه منذ فترة وجيزة لا فيما أنت عليه الآن ... وأقنعتنى تلك الحجج بكتابة هذه السطور اليك ، راجياً كل الرجاء أن تتفضل بقراءتها بنفس هادئة .

ولن أعدد لك هنا من جديد مساوىء القساوسة والبابوات ، لأصرفك عنهم ، كما اعتاد أعداء الكنيسة الكاثوليكية أن يفعلوا . لأنهم عادة ينشرون هذه المساوىء بداعى الحقد والغضب ، ورغبة فى الازعاج لا التقويم والتعليم . والحق أنى أقر بأنه يوجد فى الكنيسة الكاثوليكية

رجال على قدر كبير من العلم والمعرفة واستقامة الحياة أكثر مما يوجد منهم فى أية كنيسة مسيحية أخرى ، فانه حيثما توافر عدد أكبر من أتباع الكنيسة ، فلا بد أن يوجد عدد أكبر من الرجال من كل صنف . وهناك فى كل كنيسة كثيرون من الأمناء المخلصين غاية الأمانة والاخلاص ، ممن يعبدون الله فى عدل واحسان ، . . . لأن العدل والاحسان أصدق أمارات المذهب الكاثوليكي الحق . . . وحيثما يوجد هؤلاء ، يوجد المسيح حقاً وصدقاً ، وحيثما يفتقدون ، يفتقد المسيح كذلك . لأن روح المسيح وحده هى التى يمكن أن تقودنا الى حب العدل والاحسان . واذا كنت قد اعتزمت عزمًا أكيدًا من قبل ، التفكير مليًا بينك وبين نفسك فى هذه الحقائق ، لما ضللت ، ولما سببت لأبويك أشد الحزن والأسى . . . انك سألتنى كيف أدرك أن فلسفتى أفضل الفلسفات التى ظهرت فى العالم من قبل ، و التى تلقن الآن ، أو ستلقن فى المستقبل . والواقع أن لى حق أكبر فى أن أسألك هذا السؤال . لأنى لا ازعم انى وقعت على أفضل فلسفة . ولكنى أدرك أنى أظنها الفلسفة الحقّة . . . ولكنكم أنتم الذين تزعمون أنكم وجدتم آخر الأمر أحسن ديانة ، أو على الأرجح أفضل رجال واسرعتم الى تصديقهم كيف تعرفون أنهم أفضل من علم سائر الديانات ، أو يعلمونها الآن ، أو سيقومون بتلقينها فى المستقبل ؟ هل درستهم كل تلك الديانات قديمها وحديثها تلك التى تلقن هنا وفى الهند وفى سائر أنحاء العالم ؟ وحتى لو كنتم درستموها حق الدرس ، كيف تعرفون أنكم اخترتم أحسنها ؟ هل تعتبرونه عجرفة وغرورا ان استخدم عقلى فى الازعان لكلمة الله الحقّة الموجودة فى العقل ، ولا يمكن بأية حال افسادها أو تحريفها ؟ انأوا بأنفسكم عن هذه الخرافة المهلكة ، واعترفوا بالعقل الذى حباكم الله اياه ، وتعهدهوه اذا لم تكونوا فى عداد البهائم . . . انكم اذا أمعنتم النظر فى تاريخ الكنيسة ( وانى لأدرك أنكم على أكبر درجة من الجهل به ) لتدركوا مدى زيف كثير من

التقاليد البابوية ، ولكي تعرفوا . . . بأية حيل وأفانين استطاع البابا الروماني ، بعد ستمائة سنة من ميلاد المسيح أن يسيطر على الكنيسة ، فاني لا أشك لحظة في أنكم آخر الأمر ستفيقون من غفلتكم . واني لأود من صميم قلبي أن يتم لك هذا ، وداعا (٦٣) .

والتحق بيرج بطائفة الفرنسيكان ، وقضي نحبه في أحد الأديار في رومة .

ومعظم رسائل سبينوزا الباقية كانت مع أولدنبيرج . واننا لتتولانا الدهشة أن نجد أن كثيرا منها عالج العلوم ، وأن سبينوزا قام بتجارب في الفيزياء والكيمياء ، وأن رسائله كانت موضحة بالرسوم البيانية والتخطيطية ، وانقطعت هذه الرسائل في ١٦٦٥ ، فقد اعتقل أولدنبيرج في ١٦٦٧ وسجن في برج لندن للاشتباه في اتصاله بدولة أجنبية ، وانصرف الى الدين عند اخلاء سبيله ، وعندما استأنف مكاتبه سبينوزا ( ١٦٧٥ ) انضم الى المساعي المبذولة لضمه الى أية فرقة من فرق المسيحية الصحيحة ، ورجاه أن يأخذ قصة قيامة المسيح حرفيا لا رمزا ولا مجازا . وقال « ان العقيدة المسيحية بأسرها وحقيقتها ترتكزان على موضوع القيامة ، فاذا نحن استبعدناه ، انهارت كل رسالة المسيح وتعاليمه السماوية (٦٤) » . وفي خاتمة المطاف تخلى عن سبينوزا باعتباره نفسا ضالة ضائعة ، وانقطع عن مراسلته ( ١٦٧٧ ) .

وطوال الوقت ابتداء من عام ١٦٦٣ كان سبينوزا يعمل في كتاب « الأخلاق » . وفي أبريل ١٦٦٢ كتب الى أولدنبورج أنه كان يفكر في نشره ولكنه « كان من الطبعي أن يخشي من رجال اللاهوت أن تأخذهم العزة بالاثم ، فيشنون عليه الهجوم بكراهيتهم المعهودة ، وأنا أنفر من الشجار والنزاع كل النفور (٦٥) » . ولكن أولدنبورج استحثه على النشر « مهما يكن من أمر تدمر رجال اللاهوت المشعوذين ونباحهم (٦٦) » . ولكن سبينوزا ظل بين الأحجام والاقدام . ورخص لبعض أصدقائه في قراءة بعض أجزاء من المخطوطة ، وربما أفاد من بعض تعليقاتهم لأنه أعاد مراجعة الرسالة عدة مرات . أن الضجة التي أثارها « الرسالة اللاهوتية السياسية » كانت تبرز ما تذرعه به من

حرص وحذر ، كما ضايقه أكثر من ذلك قتل الأخوين دي ويت ، والشبهات التي حامت حوله بعد زيارته للجيش الفرنسي ، ولم يشرع فى اتخاذ أية خطوة أخرى لطبع « الأخلاق » الا فى ١٦٧٥ ، وأبلغ النتائج الى أولدنبورج :

فى الوقت الذى تسلمت فيه رسالتك المؤرخة فى ٢٣ يوليه كنت على وشك الرحيل الى أمستردام بغية البدء فى طبع الكتاب الذى كتبت اليك عنه . وبينما كنت مشغولا بهذا الأمر انتشرت فى كل مكان شائعة تقول بأن فى المطبعة كتابا لى عن « الله » ، وأنى حاولت فيه أن أبين أنه ليس هناك اله . واعتقد كثيرون فى صحة هذه الشائعة . ومن ثم انتهز بعض رجال الدين الفرصة ليتقدموا بالشكوى ضدى الى الأمير والقضاة . . . . . وعندما ترمى هذا الى سمعى . . . . . قررت تأجيل النشر الذى كنت أعد له العدة (٦٧) .

وطرح المخطوطة جانبا ، وانصرف الى كتابة رسالة عن الدولة « الرسالة السياسية » ، ولكن المنية عاجلته قبل الانتهاء منها .

وفى ٦ فبراير ١٦٧٧ كتب الطبيب الشاب جورج هرمان شوللر الى ليبنتز « أخشى أن يفارقنا مستر بندكت سبينوزا وشيكا ، حيث يبدو أن حالة السل عنده تزداد سوءا يوما بعد يوم (٦٨) ، وبعد ذلك بأسبوعين ، وحين كان سائر أهل البيت متغيبين عنه ، دخل الفيلسوف فى المنزح الأخير . وكان شوللر وحده ( لامبير كما كان مطنونا من قبل ) معه فى تلك الفترة . وترك سبينوزا تعليمات ببيع أمتعته المتواضعة لتسديد ديونه ، وينشر مؤلفاته التى لم يسبق له احراقها ، غفلا من اسمه . وقضى نحبه فى ٢٠ فبراير ١٦٧٧ دون أية طقوس كهنوتية (٦٩) . ودفن فى مقبرة فى كنيسة لاهاي الجديدة بالقرب من مقبرة جان دي ويت . أما المخطوطات - وبخاصة « الأخلاق » و « الرسالة السياسية » و « رسالة فى اصلاح العقل » فقد أعدها للمطبعة ميير وشوللر وغيرهما ، وطبعت فى أمستردام فى أواخر ١٦٧٧ .

وهكذا نأتى فى خاتمة المطاف الى الكتاب الذى صب فيه سبينوزا عصارة حياته ونفسه التى انزوى بها عن الناس .

#### ٤ - الله

ان سبينوزا سمى هذا الكتاب « الأخلاق العادية وعرض هندسي » ،  
أولا لأنه ذهب الى أن كل الفلسفة هي اعداد للسلوك الصحيح والحياة  
الحكيمة ، وثانيا ، لأنه مثل ديكارت ، حسد الزهد العقلى والتسلسل  
المنطقى فى الهندسة ، وراوده الأمل فى أن يبنى على غرار اقليدس ،  
كيانا للتفكير ، تتعقب كل خطوة منه بصورة منطقية ماسبقها من  
براهين . وهذه تشتق آخر الأمر بشكل لا يمكن دحضه من بديهيات أو  
حقائق مقرررة يتقبلها الناس جميعا . وأدرك سبينوزا أن هذا مثل أعلى ،  
وكان من العسير عليه أن يتصوره حائلا دون الخطأ ، لأنه كان بطريقة  
شبيهة بهذه شرح فلسفة ديكارت التى لم يوافق عليها .

ان المخطط الهندسي قد يؤدي على الأقل الى الوضوح ، وقد يحول  
دون اضطراب العقل بالانفعال ، واخفاء المغالطة والسفسطة بالفصاحة  
والبلاغة . ورأى أن يناقش سلوك الانسان ، بل حتى طبيعة الله ، فى  
هدوء وموضوعية ، كما لو كان يتناول الدوائر والمثلثات والمربعات .  
ولم يخل نهجه من أخطاء ، ولكنه أدى به الى ابتناء صرح للعقل  
مهيب فى عظمتة الهندسية ووحدته . وهذا المنهج استنتاجى ، وربما  
عيس له وجه فرانسيس بيكون ، ولكنه زعم أنه كان متناسقا مع كل  
الخبرة .

وبدا سبينوزا بتعريفات مأخوذة فى معظمها من فلسفة العصور  
الوسطى . وغيرت الألفاظ التى استخدمها معانيها منذ ذلك اليوم ،  
وبعضها الآن بكسو فكره بالغموض والابهام . والتعريف الثالث أساسى :  
حيث عرف الجوهر بأنه « ما هو فى ذاته ومتصور بذاته ، أعنى أن  
تصوره لا يعتمد على تصور شيء آخر لابد أن يكون مكونا منه » . وهو  
لا يقصد الجوهر بالمعنى الحديث أى المقومات والمكونات المادية ،  
واستخدامنا لهذه اللفظة بمعنى الماهية والأهمية الأساسية أقرب الى  
ما قصد اليه هو . واذا أخذنا اللفظة اللاتينية *Subsancia* التى  
استخدمها بمعناها الحرفى ، فانها تعنى « يقع تحت ، يشكل الأساس ،  
يدعم » . وفى مراسلاته (٧٠) يتحدث سبينوزا عن « الجوهر أو  
الكيثونة » أى أنه يعادل الجوهر بالوجود أو الحقيقة . ومن ثم يمكن

أن يقول « ان الوجود يتعلق بطبيعة الجوهر » أى أنه فى الجوهر تكون ماهية الشيء أو طبيعته الأساسية ووجوده شيئاً واحداً (٧١) . وقد نخلص من هذا الى أن الجوهر عند سبينوزا يعنى الحقيقة الأساسية التى تشكل أساس كل الأشياء .

ونحن ندرك هذا الواقع فى شكلين : الامتداد أو المادة ثم الفكر أو الذهن ، وهاتان « صفتان مميزتان » للجوهر ، لاصفتان به قائمتان فيه . بل هما نفس الحقيقية التى ندركها خارجياً بحواسنا باعتبارهما مادة ، والحقيقة التى ندركها بشعورنا باعتبارها فكراً . وسبينوزا « واحد » تماماً يقول بأن الحقيقة كل واحد ، فان جانبى الحقيقة هذان - المادة والفكرة - ليسا وجودين متميزين مستقلين الواحد منهما عن الآخر ، بل هما جانبان ، الخارجى والداخلى لحقيقة واحدة ، وهكذا الجسم والذهن ، وهكذا الأحداث الفسيولوجية ( الجسدية ) والحالة العقلية المناظرة لها . والحقيقة التى لامراء فيها أن سبينوزا كان يدين بالمثالية قدر ابتعاده عن المذهب المادى ، انه يعرف الصفة بأنها « ما يدركه العقل عن الجوهر كما لو كان يؤلف ما هيته (٧٢) » ويسلم سبينوزا ( قبل مولد باركلى بزمن طويل ) بأننا نعرف الحقيقة ، اما مادة أو فكراً ، عن طريق الادراك الحسى أو الفكرة فقط . ويعتقد بأن الحقيقة تعبر عن نفسها فى مظاهر لا نهاية لها ، عن طريق « عدد لا متناه من الصفات » التى لا ندرك منها ، نحن الكائنات الناقصة ، الا اثنتين . وعند هذا الحد ، يكون الجوهر أو الحقيقة ، هو كل ما يظهر لنا مادة أو ذهن ، والجوهر وصفاته شيء واحد : والحقيقة اتحاد من المادة والذهن ، وهذان متميزان فقط فى الشكل الذى ندرك به الجوهر . ونتحلل قليلاً من صيغة سبينوزا ، ونقول بأن المادة هى حقيقة مدركة خارجياً والذهن حقيقة مدركة داخلياً . فاذا استطعنا أن ندرك كل الأشياء بطريقة مزدوجة - خارجياً وداخلياً - كما ندرك أنفسنا ، فاننا نجد ، كما يعتقد سبينوزا ، « أن كل الأشياء حية نشيطة بشكل ما (٧٣) » . فهناك شكل أو درجة من الذهن أو الحياة فى كل شيء . والجوهر دائماً حى أو نشيط : والمادة فى حركة دائمة ، والذهن دائماً يدرك أو يحس أو يفكر أو يرغب أو يتخيل و يتذكر ، فى اليقظة أو النوم . والعالم فى كل جزء من أجزائه حى .

ويتعادل سبينوزا بين الله وبين الجوهر ، فهو الحقيقة التي تشكل أساس المادة والذهن وتوحد بينهما . والله لا يتعادل مع المادة ( فهذا لا يدين سبينوزا بالمذهب المادى ) ولكن المادة صفة ملازمة متأصلة أساسية ، أو مظهر من الله ( وهنا تذهب من جديد إحدى هراطقات سبينوزا فى شبابه ) . ولا يتعادل الله مع الذهن ( ومن ثم لا يدين سبينوزا بالروحانية ) ولكن الذهن صفة أو مظهر ملازم متأصل أساسى لله . والله والجوهر يتعادلان مع الطبيعة والمجموع الكلى للكينونة أو الوجود ( ولهذا كان سبينوزا يقول بوحدة الوجود : ان الله والطبيعة شيء واحد ، وان الكون المادى والانسان ليسا الا مظاهر للذات الالهية ) .

وللطبيعة مظهران . فباعتبارها القدرة على الحركة فى الأجسام ، والقدرة على التوالد والنمو والاحساس فى الكائنات الحية ، فانها طبيعة « خالقة » أو ولودة . وباعتبارها جماع كل الاشياء والاجسام والنبات والحيوان والانسان . فهى طبيعة « محدثة أو مخلوقة » . وهذه « الموجودات الفردية » فى الطبيعة المخلوقة يسميها سبينوزا حالات - أو تعديلات أو تجسيدات طارئة فى الجوهر ، والحقيقة والمادة والعقل والله . وهى جزء من الجوهر ، ولكننا نميزها فى ادراكنا الحسى ، باعتبارها اشكالا عابرة سريعة الزوال لكل داخلى . فهذا الحجر وهذه الشجرة ، وهذا الانسان أو الكوكب أو النجم - هذا المشهد المتغير العجيب من الأشكال الفردية التى تظهر وتتلشى - تؤلف كلها « النظام المؤقت » الذى قابله سبينوزا فى « رسالة اصلاح العقل » « بالنظام الأزلى » وهو بمعنى أدق الحقيقة والله المفهومان ضمنا :

لا أفهم من سلسلة العطل والموجودات الحقيقية ... سلسلة من الأشياء الفردية المتحولة ، بل سلسلة من الأشياء الثابتة الأزلية . لأنه قد يكون من المتعذر على الضعف البشرى أن يتتبع سلسلة الأشياء الفردية المتحولة ( كل حجر ، وزهرة وانسان ) . ان وجودها ليس له علاقة بماهيتها ( قد توجد ، ولكن ليس ثمة ضرورة لأن توجد ) ، أو أن وجودها ليس حقيقة أزلية ... وهذه الماهية يمكن التماسها من الأشياء الثابتة الأزلية ، ومن القوانين المنقوشة فى هذه الأشياء وكأنها

دستورها الذى بمقتضاه صنعت ورتبت ، بل ان هذه الأشياء الفردية المتحولة تعتمد اعتمادا وثيقا أساسيا ( هكذا يقال ) على هذه الأشياء الثابتة ، وبدونها لا يمكن وجودها ولا ادراكها ( ٧٤ ) .

وهكذا يكون مثلث واحدا بعينه « حالة » ، وقد لا يكون ثمة ضرورة لوجوده ، ولكن اذا وجد يكون لزاما عليه أن يطيع القوانين - وسيكون لديه كل صلاحيات - المثلث بصفة عامة ، والرجل بعينه حالة . وقد يوجد أولا يوجد ، ولكن اذا وجد ، فانه سيشارك فى ماهية وقدرة المادة - الذهن ، ويكون عليه أن يطيع القوانين التى تحكم عمليات الأجسام والأفكار ، وهذه القدرات والقوانين تؤلف نظام الطبيعة باعتبارها طبيعة « خالقة » ، وهى تشكل فى لغة اللاهوت « ارادة الله » . وحالات المادة هى فى مجموعها جسم الله ، وحالات الذهن فى مجموعها هى ذهن الله ، والجوهر أو الحقيقة . فى كل حالاتها وصفاتها هى الله . « كل ما يوجد هو فى الله ( ٧٥ ) » .

ويتفق سبينوزا مع الفلاسفة السكولاسيين فى أن الماهية والوجود فى الله شيء واحد ، ان وجوده متضمن فى تصورنا الماهية لانه يصور أن الله هو كل الوجود نفسه يحتوى على الوجود كله . ويتفق مع السكولاسيين فى أن « الله علة ذاته » حيث لا يوجد شيء خارج عنه . ويتفق معهم فى اننا نستطيع أن نعرف وجود الله ، ولكننا لا نعرف طبيعته الحقيقية . ويتفق مع توما الأكوينى فى أن استخدام ضمائر المذكر للدلالة على الله أمر سخيف مضحك ولكنه مريح ● . ويتفق مع أتباع ابن ميمون فى أن معظم الصفات التى ننسبها الى الله يمكن تصورها عن طريق القياس الضعيف مع صفات الانسان .

يوصف الله بأنه واضح القوانين أو الأمير أو الملك ،  
ويوصف بأنه عادل رحيم ... الخ . لمجرد الاعتراف أو

---

● ان اللغة تؤنث « الطبيعة » وتذكر « الله » وبأحداث التعادل بينهما كان سبينوزا أكثر انصافا للأنثى أو الأصل المنتج فى الحقيقة . وربما كان « تذكير » الله جزءا من الاخضاع الابوى للمرأة ، وهى فوق كل شيء المجرى الرئيسي للحقيقة البشرية .

التسليم بالفهم العادى ونقص المعرفة العادية (٧٧) . . .  
والله مجرد من الانفعالات ، ولا يتأثر بأية عواطف من الفرح  
أو الحزن (٧٨) . . . ان أولئك الذين يخلطون بين  
الطبيعة الالهية والطبيعة البشرية ، انما ينسبون بساطة  
الانفعالات الانسانية الى الله ، وبخاصة اذا كانوا لا يعرفون  
كيف تحدث الانفعالات فى الذهن (٧٩) .

وليس الله شخصا ، لأن هذا يعنى عقلا مفردا خاصا محدودا  
متناهيا ، ولكن الله هو مجموع كل العقل ( كل الحيوية والنشاط  
والاحساس والفكر ) - بقدر ما هو كل المادة - الموجود (٨٠) . العقل  
البشرى جزء من عقل معين غير متناه لا حدود له (٨١) ( مثل التقليد  
الارسطى - السكندرى ) . ولكن « اذا كان العقل والارادة تتعلقان  
بالماهية الأزلية لله ، فان شيئا آخر بعيدا يجب أن يفهم من هاتين  
الصفتين أكثر مما يفهمه الناس عامة (٨٢) » . « فالعقل الفعلى . . .  
مع الارادة والرغبة والحب ، الخ ، يجب ارجاعها الى الطبيعة المخلوقة  
لا الطبيعة الخالقة (٨٣) » أى أن العقول الفردية برغباتها وعواطفها  
واختياراتها ، هى حالات أو تعديلات موجودة فى الله باعتباره جماع  
كل الأشياء ، ولكنها لا تتعلق به باعتباره قانون وحياة العالم . فهناك  
فى الله ارادة ، ولكن بمعنى القوانين التى تعمل فى كل مكان . فان  
ارادته قانون .

وليس الله أبا ملتحميا يجلس على سحابة ، يحكم الكون . انه  
« العلة المقيمة الكامنة ، غير العابرة ، لكل الأشياء (٨٤) » . وليس  
يوجد « خلق » الا بمعنى ن الحقيقة غير المتناهية - المادة الذهن - تتخذ  
دوما أشكالا أو حالات جديدة فردية . وليس الله فى مكان واحد ، ولكنه  
فى كل مكان تبعا لماهيته (٨٥) . والحق أن لفظة « الهلة » هنا غير  
ملائمة . ان الله هو الهلة الشاملة العامة ، لا بمعنى علة سابقة على  
نتيجتها ، ولكن فقط بمعنى أن سلوك أى شيء ينبع بالضرورة من  
طبيعته . والله هو علة كل الأحداث ، بنفس الطريقة التى تكون بها  
طبيعة المثلث هى علة خواصه وسلوكه . والله حر ، فقط بمعنى أنه غير  
خاضع لأية علة أو قوة خارجية ، وأنه غير محكوم الا بماهيته أو طبيعته

الخاصة ، ولكنه « لا يتصرف عن حرية الارادة (٨٦) » ، وكل أفعاله تحددها وتحكمها ماهيته - وهذا يعنى أن الطبيعة المتأصلة الملازمة للأشياء وخواصها هى التى تحكم كل الأحداث . وليس فى الطبيعة خطة بمعنى أن الله يرغب فى غاية أو هدف بعينه ، فليس لديه رغبات أو خطط ومشروعات ، اللهم الا أن جماع الأشياء تحتوى رغبات وخطط كل الحالات ، ومن ثم خطط ورغبات كل الكائنات الحية . وليس فى الطبيعة الا نتائج ، تتبع بالضرورة عللا سابقة لها وخواصا متأصلة . وليس هناك معجزات ، لأن ارادة الله و « نظام الطبيعة الثابت الذى لا يتغير » شيء واحد (٨٧) ، وأى خرق أو اضطراب فى « سلسلة الأحداث الطبيعية » يكون تناقضا ذاتيا .

والانسان مجرد جزء صغير من الكون . والطبيعة تقف على الحياد بين الانسان وسائر الأشكال . وينبغى ألا نطلق على الطبيعة أو الله ألفاظا مثل خير أو شر ، جميل أو قبيح ، فتلك مصطلحات ذاتية ، مثل ساخن أو بارد وانما يحددها أسهام العالم الخارجى فى منفعتنا أو استيائنا .

ان الحكم على كمال الأشياء يكون بطبيعتها وقدرتها فحسب ، فهى ليست أكثر أو أقل كمالا بسبب أنها تسر أو تسيء الى حواس الانسان ، ولا يسبب أنها نافعة أو ضارة للطبيعة البشرية (٨٨) . . . . وبناء على ذلك ، فانه اذا كان فى الطبيعة شيء يبدو لنا سخيفا أو مضحكا أو شرا ، فما ذاك الا لأننا لا ندرك الا القليل ، بل نكاد نجهل كل الجهل ، نظام الطبيعة واتكأها بعضها على بعض ككل ، كذلك لأننا نريد أن يكون كل شيء وفقا لما يمليه عقلنا البشرى . والواقع أن ما يعتبره العقل شرا ، ليس شرا بالنسبة لنظام الطبيعة وقوانينها ككل ، بل بالنسبة لقوانين عقلنا فقط (٨٩) .

وبالمثل لا يوجد فى الطبيعة جمال ولا قبح .

ليس الجمال . . . الى حد كبير صفة فى الشيء المرئى ، تحدث أثرا فى الرأى . واذا كان ابصارنا أطول أو أقصر ، واذا كانت بنياتنا متفاوتة ، فان ما نراه الآن جميلا ، يجب

أن نظنه قبيحا . أن أجمل يد ترى بالمجهر ستبدو مخيفة (٩٠) . . . أنا لا أنسب الى الطبيعة الجمال أو التشويه ولا النظام أو الفوضى والاضطراب . وبالنسبة لخيالنا أو تصورنا فقط ، يمكن أن توصف الأشياء بأنها جميلة أو قبيحة ، حسنة الترتيب أو مهوشة (٩١) .

والنظام موضوعى بمعنى واحد ، هو أن كل الأشياء تتحد فى نهج واحد من القانون ولكن فى هذا النظام تكون العاصفة المدمرة طبيعية ، بقدر ما تكون روعة غروب الشمس أو رهبة البحر طبيعية .

وهل نحن على حق ، على أساس هذا « اللاهوت » اذا نعتنا سبينوزا بالالحاد ؟ لقد رأينا أنه لم يكن ماديا ، لأنه لم يعادل بين الله والمادة ، فانه يقول فى وضوح تام بأن أولئك الذين يذهبون الى أن « الرسالة باللاهوتية السياسية » قائمة على تعادل الله مع الطبيعة آخذين الطبيعة على أنها كتلة معينة من مادة عينية - مخطئون غاية الخطأ (٩٢) . « انه تصور الله ذهنًا ومادة على حد سواء . ولم يختزل الذهن الى مادة واعترف بأن الذهن هو الحقيقة الوحيدة المعروفة مباشرة . وذهب الى أن ثمة شيئًا مجانيًا للذهن . يختلط بكل المادة ، وكان من هذه الناحية ممن يقولون بوحدة الوجود ، كان مؤمنًا بوحدة الوجود ، حيث يرى الله فى كل الأشياء ، ويرى كل الأشياء فى الله . واعتبره بيل وهيوم ، وغيرهما (٩٣) ملحدًا . وقد يبدو ما يبرر هذا الوصف فى انكار سبينوزا للشعور والرغبة أو الفرض عند الله (٩٤) . انه هو نفسه على أية حال ، اعترض على « رأى العامة فى حيث لا يكفون عن اتهامى خطأً بأنى ملحد (٩٥) » والظاهر أنه شعر بأن نسبته ذهنًا وذكاء الى الله غفرت له تهمة الالحاد . ويجب التسليم بأنه تحدث مرارا وتكرارا عن ربه فى عبارة تتسم بالاجلال الدينى ، مما يتفق تمام الاتفاق مع مفهوم الله عند ابن ميمون أوتوما الأكوينى ، بل قد يسميه نوفاليس « الرجل الثمل بحب الله » .

والواقع أنه كان نشوانا بنظام الطبيعة بأسره ، ذلك النظام الذى بدأ له فى تماسكه وحركته الأزليتين مثيرا للاعجاب مهيبا . وفى الكتاب الأول من « الاخلاق » كتب عن نهج للاهوت وميتافيزيقا العلوم معا . وفى دنيا القانون أحس بوحي الهى ، اعظم من أى كتاب مهما كان

كريما وجميلا . وأن الفرد العلمى الذى يدرس ذلك القانون ، حتى فى أتفه تفاصيله وأصغرها شأنًا ، انما يفك مغاليق هذا الوحى لأننا « كلما ازددنا فهما للأشياء الفردية ازددنا فهما لله (٩٦) » ( وقد هزت هذه الجملة مشاعر جوته باعتبارها أعمق عبارة فى الأدب كله . ) . وبدأ لسبينوزا أنه قبل وواجه فى أمانة واخلاص التحدى الضمنى فى كوبرنيكس - ليعيد تصور الاله على أساس جدير بالكون الذى يتكشف يوما بعد يوم . ولم يعد ثمة صراع بين العلم والدين عند سبينوزا ، فهما شيء واحد .

### ٥ - الذهن :

ان أكبر لغز فى الفلسفة والعلم ، بعد طبيعة الكون وعمله ، هو طبيعة الذهن وعمله . واذا كان من الصعب التوفيق بين نزعة خيرة بالغة القدرة وبين حياد الطبيعة وحتمية المعاناة والألم ، فانه يبدو من الصعوبة بنفس القدر أن نفهم كيف يستطيع شيء ظاهر أنه خارجى مادى محدود ذو حيز أن يولد فكرة واضح أنها غير مادية وغير محدودة بحيز ، و كيف تصبح فكرة فى الذهن حركة فى الجسم ، أو كيف تستطيع فكرة أن تدقق التأمل فى فكرة أخرى فى غياهب الوعى .

ويتفادى سبينوزا بعض هذه المشاكل بنبذة فرضية ديكرت القائلة بأن الجسم والذهن جوهران مختلفان . ويعتقد أن الجسم والذهن شيء واحد ، وأنهما نفس الحقيقة ، وأنهما يدركان فى مظهرين أو صفتين مختلفتين مثلما أن الامتداد والفكر شيء واحد فى الله - ومن ثم لا تكون هناك مشكلة فى كيفية تأثير الجسم فى الذهن أو العكس بالعكس . وكل حدث هو العملية المتزامنة الموحدة للجسم والذهن كليهما . ويعرف سبينوزا الذهن بأنه « فكرة الجسم (٩٧) » أى العمل السيكولوجى ( وليس بالضرورة عملا واعيا ) المتلازم والمرتبط بأية عملية فسيولوجية . فالذهن هو الجسم نحس به من الداخل ، والجسم هو الذهن نراه من الخارج والحالة الذهنية هى الظهر الداخلى أو الباطنى لأى عمل جسمى . وأى عمل « للارادة » هو المرافق ذهنى لأية رغبة جسدية تتحول الى تعبير بدنى . وليس هناك عمل « للارادة » فى الجسم ، ولكن هناك عمل واحد للكائن السيكوفسيولوجى

( الذهنى المادى ) ، وليست « الارادة » هى العلة ، بل هى وعى الحدث أو العمل . « ان قرار الذهن ، ورغبة الجسم وتصميمه . . . شيء واحد ليس الا ، اذا أدرجناه تحت صفة الفكر نسميه قرارا ، واذا اعتبرناه من صفة الامتداد ، واستنتجناه من قوانين الحركة والسكون نسميه تصميميا » فعلا منتهيا ( ٩٨ ) . ومن ثم فان « نظام أفعال وانفعالات أو حركات جسمنا متزامنة مع نظام وانفعالات أو حركات الزهن ( ٩٩ ) » . وفى كل أحوال التفاعل المفروض بين الذهن والجسم ، ليست العملية الواقعية تفاعلا بين حقيقتين أو جوهرين أو عاملين متميزين ، بل هى عمل جوهر واحد ، اذا رثى من الخارج سميناه جسما ، واذا رثى من الداخل سميناه ذهنا . ولكل عملية فى الجسم هناك عملية موازية لها فى الذهن . « لا يمكن أن يحدث شيء فى الجسم الا أدركه الذهن ( ١٠٠ ) » ولكن هذا المتلازم الذهنى قد لا يكون فكرا ، بل قد يكون شعورا ، وقد لا يكون بالضرورة واعيا ، وهكذا يأتى الذى يمشي وهو نائم بسلسلة من الأفعال وهو « غير واع ( ١٠١ ) » وهذه النظرية تسمى « التوازى السيكوفسيولوجى » ، وهى تفترض عمليات متوازية ، لا فى وجودين مختلفين ، بل فى وحدة سيكوفسيولوجية ( عقلية جسدية ) ترى رؤية مزدوجة .

وعلى هذا الأساس ينتقل سبينوزا الى وصف ميكانيكى لعملية المعرفة . ومن المحتمل أنه حذا حذو هوبز فى تعريف الاحساس والذاكرة والتصوير على أسس بدنية ( ١٠٢ ) . ويستدل على هذا بأن معظم المعرفة ينشأ من تأثيرات تحدثها فينا أشياء خارجية . ولكنه يسلم بما يذهب اليه المثالى من أن « الذهن البشرى لا يدرك أن جسما خارجيا موجود بالفعل الا عن طريق أفكار عن تعديلات فى جسمه ( ١٠٣ ) » . فالادراك الحسى والعقلى ، وهما شكلان للمعرفة ، مشتقان من الاحساس . ولكن هناك شكل ثالث أسمى « المعرفة البديهية » ، لا يستمد ( هكذا يعتقد سبينوزا ) من الاحساس ، بل من وعى واضح متميز مباشر شامل لفكرة أو حادث باعتبارها جزءا من نظام كونى له قانون .

واستبق سبينوزا لوك وهيوم حيث نبذ فكرة أن الذهن قوة أو وجود له أفكار ، « فالذهن » تعبير عام أو مجرد عن تسلسل المدركات الحسية والذاكرات والتصورات والمشاعر وغيرها من الحالات العقلية .

« وفكرة الذهن ، والذهن نفسه » فى آية لحظة « شيء واحد بعينه (١٠٤) » . كما أنه ليس هناك « ملكات » متميزة ، مثل العقل أو الارادة ، فهذه أيضا تعبيرات مجردة عن مجموع المدركات والاختبارات . ان للعقل أو الارادة صلة بهذه الفكرة أو تلك ، وبهذه الرغبة أو تلك ، بنفس أسلوب الصلة بين الحجرية وهذا الحجر أو ذاك ، أو الرجل بيتير أو بول (١٠٥) . كما أن الفكرة والرغبة لا تختلفان ، فالرغبة و عمل « الارادة » هى مجرد فكرة « أكدت نفسها (١٠٦) » ( أى أنها طال على بقائها من الوقت ما يكفى لاستكمال نفسها أو تحقيقها فى فعل - كما تفعل الأفكار تلقائيا اذا لم يقف فى طريقها عائق ) . « وليس قرار الذهن . . . . . الا مجرد توكيد تنطوى عليه الفكرة بقدر ما هى فكرة (١٠٧) . . . . . والارادة والفكر شيء واحد بعينه (١٠٨) » .

وثمة وجهة نظر أخرى ، تلك هى أن ما نسميه ارادة هو ببساطة ذروة الرغبات ونشاطها ، « أنا أفهم الرغبة . . . على أنها كل محاولات الانسان واندفاعاته وشهواته واختياراته التى لا يندر أن يتعارض بعضها مع بعض ، الى حد أنه يتخبط هنا وهناك ، وهو لا يدري أية جهة يتجه (١٠٩) » . والتروى هو تعاقب سيطرة الرغبات المتصارعة على الجسم والفكر . وهذا ينتهى عندما تثبت رغبة ما أنها بلغت من القوة مبلغا تحتفظ معه بالحالة العقلية بها وقتا كافيا لتنتقل الى فعل . ويقول سبينوزا بأنه واضح أنه لا توجد « ارادة حرة » ، فالارادة فى أية لحظة ليست الا أقوى الرغبات . فنحن أحرار بقدر ما يجازلنا أن نعبر عن طبيعتنا أو عن رغباتنا دون عائق خارجى ، ولسنا أحرارا فى اختيار طبيعتنا أو رغباتنا ، انما نحن رغباتنا . وليس الذهن ارادة مطلقة أو حرة ولكن الذهن محكوم عليه بأن يريد هذا أو ذاك لعله هى نفسها بدورها محكومة بعله أخرى ، وهذه بعله ثالثة ، وهكذا الى ما لا نهاية (١١٠) » . ويظن الناس أنفسهم أحرارا لأنهم يعون اختياراتهم ورغباتهم ، ولكنهم يجهلون العلل التى تؤدى بهم الى أن يتخيروا ويرغبوا (١١١) ، ومثل هذا مثل حجر يقذف به فى الفضاء فيظن أنه يتحرك ويهوى بمحض ارادته (١١٢) .

ومن الجائز أن الجبرية الكلفنية فى « جو الراى » الذى عاش

فيه ديكارت وسبينوزا أثناء اقامتهما فى هولنده ، قد أسهمت مع ميكانيكا جاليليو ( ولم تكن قاعدة نيوتن قد ظهرت بعد ) فى تشكيل النظرية الميكانيكية عند ديكارت ، وعلم النفس الجبرى عند سبينوزا . والجبرية هى الايمان بالقضاء والقدر دون لاهوت . وهى تحل محل الدوامه أو السديم البدائى لله ، وتتبع سبينوزا منطق الميكانيكا الى نهايته المريرة ، فانه مثل ديكارت لم يقصره على الاجسام والحيوانات ، بل طبقه على الأذهان كذلك ، وكان لزاما أن يفعل ذلك ، حيث أن الذهن والجسم عنده شيء واحد . وخلص الى أن الجسم آله ( ١١٣ ) . ولكنه أنكر أن الجبرية تجعل الأخلاق عقيمة منافقة . ان عظمات رجال الأخلاق والمثل العليا عند الفلاسفة ، ووصمة عار الاستنكار العام وعقوبات المحاكم لا تزال ضرورية ذات قيمة ، وانها لتدخل فى تراث وخبرة الفرد الذى يكبر وينمو ، ومن ثم فى العوامل التى تشكل رغباته وتحدد ارادته وتحكمها .

#### ٦ - الانسان :

يدخل سبينوزا فى فلسفته التى يظهر أنها جامدة عاملين فعالين ، أولهما وبصفة عامة ، هو أن المادة والذهن متحدان فى كل مكان ، وأن كل الأشياء مفعمة بالحياة والنشاط ، وأن فيها شيئا مماثلا لما نسميه فى أنفسنا بالذهن أو الارادة ، والثانى ، وعلى وجه التخصيص ، هو أن هذا العنصر الحيوى يشتمل فى كل شيء على « محاولة للبقاء على الذات » ، ان كل شيء بقدر ما هو فى نفسه يسعى للمحافظة على وجوده هو نفسه . و « قدرة أى شيء أو سعيه ... للاصرار على وجوده ، ليس الا ... مجرد ماهية ذاك الشيء ( ١١٤ ) » . ومثل الفلاسفة السكولاسيين الذين قالوا « أن تكون هو أن تعمل » ، وأن الله « نشاط محض » ، ومثل شوبنهاور الذى رأى فى الارادة ماهية كل الأشياء ، ومثل الفيزيائيين الحديثين الذين يختزلون المادة الى طاقة يعرف سبينوزا ماهية كل كائن عن طريق قدراته على الفعل أو العمل . « وقدرة الله هى نفس ماهيته ( ١١٥ ) » ، وفى هذه الناحية « يكون الله طاقة ( ويمكن أن تسمى الطاقة ، بالاضافة الى المادة والذهن ، صفة ثالثة ندرك أنها تؤلف ماهية الجوهر أو الحقيقة ) » . ويحذو سبينوزا حذو هوبز فى تصنيف الوجودات حسب قدرتها على الفعل

وتأثيرها . « ويقدر كمال الأشياء حسب طبيعتها وقدرتها فحسب (١١٦) »  
ولكن « كامل » عند سبينوزا معناه « تام » .

ونتيجة لهذا يعرف سبينوزا الفضيلة بأنها القدرة على التصرف  
والفعل ، « انى أفهم من الفضيلة والقدرة نفس الشيء (١١٧) » .  
ولكننا سنرى أن هذه القدرة تعنى القدرة على أنفسنا ، حتى أكثر  
من القدرة على الآخرين (١١٨) كلما ازداد المرء سعيا وراء ما فيه  
نفعه - سعيا وراء المحافظة على وجوده - ازداد تنعمه بالفضيلة ...  
فالسعى للمحافظة على الذات هو الأساس الوحيد للفضيلة (١١٩) .  
فالفضيلة عند سبينوزا حيوية ( بيولوجية ) ، داروينية على الأغلب ،  
انها أية صفة تعمل على البقاء . وبهذا المعنى ، على الأقل ، تكون  
الفضيلة جزاء الفضيلة . « فهى مرغوب فيها من أجلها هى وحدها ،  
وليس ثمة شيء أكثر امتيازاً أو نفعاً لنا ... من أجله ينبغى أن تكون  
الفضيلة مرغوباً فيها (١٢٠) » .

ولما كان السعى للمحافظة على الذات ( التنازع من أجل البقاء )  
هو الماهية الفعالة لكل شيء . فان كل الدوافع تنبع منه ، وهذه الدوافع  
فى أساسها أنانية . ومن حيث أن العقل لا يطالب بشيء ضد الطبيعة ،  
فهو يطالب ، لذلك ، بأن يحب كل انسان نفسه ، ويلتمس ما هو مفيد  
له - أعنى ما هو مفيد حقا له - ويرغب فى كل ما يؤدى بالانسان حقا  
الى حالة كمال أعظم ، وأخيرا أنه يجب على كل انسان أن يسعى جاهدا  
للمحافظة على وجوده قدر استطاعته (١٢١) . وليس ضروريا أن تكون  
هذه الرغبات واعية ، فقد تكون شهوات لا واعية قائمة فى الجسد .  
وهى تؤلف فى جملتها ماهية الانسان (١٢٢) . ونحن نحكم على كل  
الأشياء على أساس رغباتنا . نحن لا نناضل من أجل أى شيء أو نريده  
أو نلتمسه ونرغب فيه لأننا نظن نه خير ، بل نحكم على شيء بأنه  
خير ... لأننا نرغب فيه (١٢٣) . « انى أفهم أن الخير هو ما نعلم  
علم اليقين أنه نافع لنا (١٢٤) » ( وهنا نجد ، فى جملة واحدة ،  
مذهب المنفعة عند بنتام ) .

وكل رغباتنا تهدف الى اللذة أو تجنب الألم . « اللذة هى انتقال  
الانسان من حالة كمال أدنى (١٢٥) » واللذة تصاحب أية ممارسة

وشعور يعزز ويزيد من قيمة عمليات النشاط أو التقدم الذاتى الجسدية العقلية (١٢٦) • ويتمثل الفرح فى أن قدرة المرء تزداد (١٢٧) « • وكل شعور يوهن من حيوتنا انما هو ضعف لا فضيلة • وما أسرع ما يتخلص الرجل السليم من مشاعر الحزن والندم والاتضاع والأسف (١٢٩) ، وهو على أية حال أكثر من الرجل الضعيف استعدادا لم يد المساعدة ، لأن الكرم فائض القوة الواثقة • وأية لذة تكون مشروعة اذا لم تعوق لذة أعظم أو أبقى ، ويمتدح سبينوزا ، مثل أبيقور ، اللذات العقلية باعتبارها أو فضلها ، ولكنه يسوق كلمة طيبة فى تشكيلة كبيرة من اللذات :

لا يمكن أن يكون ثمة مرح بالغ .. .. وليس هناك ما يحرم الضحك الا الخرافة الكئيبة .. .. والافادة من كل الأشياء والابتهاج بها قدر الامكان ( لا الى حد التخمة حقا ، لأن هذه ليست ابتهاجا ) جزء من الرجل الحكيم العاقل .. .. فيتناول المعتدل الطيب من الطعام والشراب ، ويستمتع بالعطور والحدائق والثياب والموسيقى والالعب والمسارح (١٣٠)

ان المشكلة فى مفهوم اللذة باعتبارها تحقيقا للرغبات ، تكمن فى أن الرغبات قد تتصارع ، فان الرغبات لا تنتظم فى تسلسل متناسق منسجم الا عند الانسان العاقل الحكيم • والرغبة عادة هى المتلازم الواعى لشهوة متأصلة فى الجسم ، وقد يبقى قدر كبير من الشهوة غير واع ، الى حد أننا لا يكون لدينا الا مجرد « أفكار مشوشة غير وافية » عن عللها ونتائجها • ومثل هذه الرغبات المشوشة يسميها سبينوزا عواطف أو انفعالات • ويعرفها بأنها « تعديلات فى الجسم تزيد أو تنقص بها قدرة الجسم على العمل .. .. وفى نفس الوقت أفكار هذه التعديلات (١٣١) » وهو تعريف يسلم تسليما غامضا بدور الافرازات الباطنية فى العواطف ، يستبق بشكل ملحوظ نظرية س.ج. لانج ووليم جيمس التى تقول بأن التعبير الجسدى عن العاطفة هو النتيجة المباشرة الغريزية للعلة ، وأن الشعور الواعى مصاحب أو نتيجة ، لا علة ، لتعبير الجسم أو استجابته • ويقترح سبينوزا دراسة العواطف - الحب والبغض والغضب والخوف الخ - وسيطرة العقل

● يردد نيتشه هذه التعاريف : « ما هو الخير ؟ » هو كل ما يعزز الاحساس بالقدرة .. .. ما هى السعادة ؟ .. .. هى الاحساس بأن القدرة تتزايد (١٢٨) « •

عليها « بنفس الطريقة . . . كما لو كنت أعالج الخطوط والسطوح والأجسام (١٣٢) » لا لأمتدحها ولا لأنتقص منها ، بل لأفهمها ، لأننا « كلما ازددنا معرفة بالعاطفة ازدادت سيطرتنا عليها ، وأصبح الذهن أقل سلبية بالنسبة لها (١٣٣) » . ودان تحليل العواطف الناتج عن هذه الدراسة ببعض الفضل لديكارت ، وربما بفضل أكبر لهوبز ، ولكنه بزهما ، حتى أن جوهانس مولر ، عندما عالج موضوع العواطف في كتابه الممتاز « فسيولوجية العواطف » ( ١٨٤٠ ) كتب يقول « بالنسبة لعلاقات العواطف بعضها ببعض ، بعيدا عن ظروفها الفسيولوجية ، فإنه يتعذر الاداء ببيان أوفى مما ذكره سبينوزا في براعة لا تفوقها براعة (١٣٤) » - وأخذ يقتبس كثيرا من كتاب « الأخلاق » .

وتصبح العاطفة هوى أو انفعالا ، إذا كانت علتها الخارجية - بسبب أفكارنا المهوشة الناقصة عن منشئها ومغزاها - تفرض علينا شعورنا واستجابتنا ، كما هو الحال في البغض أو الغضب أو الخوف . ان الذهن يخضع بشكل أو بآخر للأهواء والانفعالات ، تبعا لما لديه بنفس القدر من أفكار كافية أو ناقصة (١٣٥) . والانسان ذو المقدرة الضعيفة على الادراك الحسي والفكري خاضع بصفة خاصة للأهواء . ومثل هذه الحياة يصفها سبينوزا في كتابه الفذ ، الجزء الرابع ، « استرقاق الانسان » ، فان هذا الانسان مهما كان تصرفه عنيفا ، سلبى بليد ، مسوق بمؤثر خارجى ، بدلا من أن يتماسك ويثبت ويعمل فكره . « ان أسبابا خارجية تقودنا على غير هدى فى دروب متشعبة كثيرة ، وكما تسوق الرياح الهوج غير المواتية الامواج سوقا ، فاننا نضطرب ونتردد على غير وعى بالعاقبة ولا بالمصير (١٣٦) » .

ترى هل نستطيع فكاكا من هذا الاسترقاق ، ونصبح بدرجة ما سادة أنفسنا وحياتنا ؟ .

## ٧ - العقل :

لن تكون لنا سيادة تامة على أنفسنا أبدا ، لأننا سنبقى جزءا من الطبيعة ، خاضعين ( كما كان يقول نابليون ) « لطبيعة الأشياء » . وحيث أن العواطف هي قوتنا الدافعة ، والعقل مجرد ضوء ، وليس

تلهيبا ، « فان أية عاطفة لا يمكن تعويقها أو القضاء عليها الا بعاطفة أخرى متعارضة وأشد قوة (١٣٧) » . ومن هنا كان المجتمع بحق يحاول جاهدا أن يلفظ ويخفف من انفعالاتنا وأهوائنا باللجوء الى حبنا للثناء وحسن الجزاء وخوفنا من العتاب والعقاب (١٣٨) . كما يسعى المجتمع جاهدا بحق ليغرس فينا الشعور بالصواب والخطأ وسيلة أخرى لكبح جماح الأهواء والانفعالات . والضمير ، بطبيعة الحال ، نتاج اجتماعي ، وليس هبة أو منحة فطرية الهية (١٣٩) .

ولكن في استخدام الثواب والعقاب الوهميين في الحياة بعد الموت ، حوافز على الخلق القويم ، تشجيعا على الخرافة ، لا يليق أبدا بمجتمع ناضج . وينبغي أن تكون الفضيلة - وهي فعلا كذلك - جزاء نفسها ، اذا عرفناها ، مثل الرجال ، بأنها المقدرة والذكاء ، والقوة ، لا مثل الجبناء ، بأنها الازعان والطاعة والتواضع والخوف . واشماز سبينوزا من النظرة المسيحية الى الحياة بأنها واد من الدموع ، والى الموت بوصفه مدخلا للنعيم أو الجحيم ، وقد أحس بأن هذا يلقي حجابا كثيفا من الكآبة على نشاط البشر ، ويغشي بفكرة الخطيئة آمال الناس وأمانيتهم ومسراتهم المشروعة بالظلام والقتام . ان التفكير في الموت ليل نهار سبة في جبين الحياة وامتهان لها « ان أقل ما يفكر فيه الانسان الحر هو الموت ، وانه ليفرغ كل حكمته وعقله في التأمل في الحياة ، لا في الموت (١٤٠) » .

وعلى الرغم من ذلك كان سبينوزا يبدو في بعض الأحيان وكأنه يخوم حول فكرة الخلود ان نظريته في الذهن والجسم باعتبارهما جانبين لنفس الحقيقة أدت به منطقيا الى أن يرى فناءهما متزامنا . وهو يؤكد هذا في وضوح تام : « ان الوجود الراهن للذهن ، وقدرته على التصور تزولان بمجرد أن يكف الذهن عن توكيد الوجود الراهن للجسم (١٤١) » . ثم « ان الذهن لا يمكن أن يتصور شيئا ، ولا أن يتذكر شيئا مضي الا حين يكون الجسم موجودا (١٤٢) » . وتظهر في الجزء الخامس بعض فروق غامضة : « اننا اذا نظرنا الى الراى السائد بين الناس لرأينا أنهم يعون حقا خلود أذهانهم ، ولكنهم يخلطون بين هذا وبين البقاء أو الدوام ، وينسبون الى التصور والذاكرة اللتين يعتقدون أنهما تبقيان بعد الموت (١٤٣) » . وما دام الذهن عبارة

عن سلسلة من الافكار والذكريات والتصورات المؤقتة المرتبطة بجسم معين ، فانه ينقطع وجوده عندما يفنى الجسم ، وهذا هو « البقاء الفانى » للذهن . ولكن ما دام الذهن البشرى يدرك الاشياء فى علاقاتها الأبدية ، باعتبارها جزءا من المنهج الشامل الذى لا يتغير للقانون الطبيعى ، فانه يرى الاشياء كأنها فى الله ، ويصبح عند هذا الحد جزءا من الذهن الالهى ويكون خالدا :

اننا نتصور الأشياء واقعية بطريقتين : اما بقدر ما نتصور وجودها بالنسبة لزمان ومكان معينين ، أو بقدر ما نراها متضمنة فى الله ( فى النظام والقوانين الأزلية ) وأنها تنشأ عن ضرورة الطبيعة الالهية ( أى تلك القوانين ) . ولكن الأشياء التى ترى فى الحالة الثانية على أنها صادقة أو حقيقية إنما نتصورها نوعا معينا من الأزلية ( فى جانبها الأزلى ) . وأفكارها تتضمن ماهية الله الأزلية اللامتناهية ( ١٤٤ ) .

وعندما نرى الأشياء بهذه الحالة السرمدية ، فاننا نراها كما يراها الله ، وعند هذا الحد تصبح أذهاننا جزءا من الذهن الالهى ، وتشارك فى الأزلية .

اننا لا ننسب الى ذهن الانسان بقاء يحدد بزمن . ولكن حيث أن هناك ، على الرغم من ذلك ، شيئا آخر يتصور فى ظل ضرورة أزلية معينة ، عن طريق ماهية الله ، فان هذا الشيء الآخر سيكون بالضرورة الجزء الأزلى الذى يتعلق بالذهن ( ١٤٥ ) . . . ونحن على يقين من أن الذهن أزلى طالما أنه يتصور الأشياء فى ظل الأبدية ( ١٤٦ ) .

ولنفترض أنه فى التأمل فى التسلسل المهيب للعلة والنتيجة الظاهرتين طبقا لقوانين واضح أنها أبدية ، أحس سبينوزا أنه قد هرب ، مثل بوذى بلا خطيئة ، من أغلال الزمن ، وشارك فى وجهة نظر الذهن الأزلى وهدوئه .

وعلى الرغم من هذا الوصول الظاهري للقمر ، خصص سبينوزا معظم ختام الجزء الخامس « الحرية الانسانية » لصياغة علم أخلاق طبيعى ، ينبوع ومنهج للأخلاق ، مستقلين عن الحياة بعد الموت ، ولو أنه استخدم فى ولع شديد تعبيرات دينية ، وان جملة واحدة لتكشف عن نقطة البداية . « ان العاطفة التى تكون انفعالا أو هوى لا تعود انفعالا ولا هوى اذا نحن كونا عنها فكرة واضحة متميزة (١٤٧) » -  
أى أن العاطفة التى تثيرها أحداث خارجية يمكن الهبوط بها من الانفعال الى شعور منضبط اذا هيأنا لمعرفتنا أن نحتال عليها حتى تصبح علتها وطبيعتها واضحتين ، كما يصبح التنبؤ بعاقبة التصرف أمرا ممكنا من خلال الخبرة المختزنة فى الذاكرة . وثمة طريقة لايضاح الحالة العاطفية ، تلك هى أن نرى الاحداث التى أنشأتها ، بوصفها جزءا من سلسلة من علل طبيعية ونتائج ضرورية لها . « ويقدر ما يفهم الذهن كل الأشياء على أنها ضرورية لازمة ، يكون أكثر سيطرة على العواطف ، وأقل سلبية نحوها (١٤٨) » - أى أقل نهبا للانفعالات والأهواء . ولن يصبح أى انسان انفعاليا لما يعتبره طبيعيا لازما . ويمكن التخفيف من حدة الغضب لأية اساءة ، اذا نظرنا الى المسيء باعتباره نتاج الظروف التى لم يستطع التحكم فيها . كما يمكن التخفيف من الحزن على فقد والدين مسنين بتذكر أن الموت أمر طبيعى . « ومحاولة الفهم هى الأساس الأول الوحيد للفضيلة (١٤٩) » ، بمعنى هذه الكلمة عند سبينوزا ، لأنها تنقص من خضوعنا للعوامل الخارجية ، وتزيد من قدرتنا على ضبط أنفسنا والمحافظة عليها . والمعرفة قدرة أو قوة ، ولكن أفضل وأنفع شكل لهذه القوة هو سيطرتنا على أنفسنا .

وهكذا يطبق سبينوزا طريقته الرياضية ( طريقة اقليدس ) على حياة العقل . ويسترجع الانواع الثلاثة التى وضعها للمعرفة ، فيصف المعرفة الحسية ، بأنها تتركنا عرضة الى حد كبير للمؤثرات الخارجية ، والمعرفة العقلانية ( المكتسبة عن طريق التفكير والتأمل ) بأنها تحررنا تدريجا من استرقاق الانفعالات حيث تمكنا من رؤية العلل المحتمومة غير الشخصية للأحداث ، وأخيرا المعرفة البديهية أو الحدسية - الوعى المباشر بنظام الكون - ويصفها بأنها تجعلنا نحس أنفسنا جزءا من ذلك

النظام ، « ومتحددين مع الله » . وينبغي ان نتوقع ونحتمل وجهى  
الحظ كليهما بنفس الذهن ، لأن كل الأشياء تنشأ من القانون الأبدى  
لله ، بنفس الطريقة التى ينشأ بها من ماهية المثلث أن زواياه الثلاث  
تشكل زاويتين قائمتين (١٥٠) . ان هذا الهروب من التفكير الطائش  
هو الحرية الحقيقية الوحيدة (١٥١) . وهذا الذى يستطيع بلوغها ،  
يملان - كما اعتاد الرواقيون أن يقولوا - أن يكون حرا فى كل ظرف فى  
كل حالة تقريبا . ان أكبر هبة يمكن أن تمنحنا اياها المعرفة هى أن  
نرى أنفسنا كما يرانا العقل .

وعلى هذا الأساس من المذهب الطبيعى يصل سبينوزا الى بعض  
نتائج أخلاقية ، مثل تلك التى وصل اليها المسيح ، بشكل يدعو الى  
الدهشة :

ان الذى يعرف بحق أن كل الأشياء تنشأ من ضرورة  
الطبيعة الالهية ، وتسير وفق قوانين أزلية طبيعية منتظمة ،  
لن يجد اطلاقا شيئا جديرا بالكراهية ، أو السخرية أو  
الازدراء ، كما انه لن يرثى لأحد ، ولكنه ، بقدر ما تسمح  
الفضيلة البشرية ، سيسعى جهده ليعمل صالحا . . .  
ويبتهج (١٥٢) . . . أن الذين يعترضون على الناس  
ويؤثرون استنكار الرذائل ، لاغرس الفضائل . . . مصدر  
ازعاج لأنفسهم وللآخرين معا (١٥٣) . . . ان الرجل  
القوى لا يبغض أحدا ، ولا يثير غضبه أحد ، ولا يحسد أحدا ،  
ولا ينقم على أحد ، وليس بأية حال مغرورا (١٥٤) .  
ان الذى يعيش على هدى من العقل ، يحاول قدر طاقته أن  
يقابل الكراهية والغضب والاحتقار . . . الخ ، بالحب  
والكرم . . . وهذا الذى يرغب فى الانتقام للأذى بالكراهية  
المتبادلة ، انما يعيش حليف البؤس والشقاء . فالكراهية  
تتفاقم اذا كانت متبادلة ، وعلى العكس يمكن القضاء عليها  
بالحب (١٥٥) . . . والناس ، بهدى من العقل ، . . .  
لا يرجون لأنفسهم شيئا لا يحبونه لسائر البشر (١٥٦) .  
( أحب لأخيك ما تحب لنفسك ) .

وهل ضبط العاطفة بالعقل على هذا النحو ، يتعارض كما يظن بعضهم (١٥٧) ، مع تسليم سبينوزا بأنه ليس ثمة الا عاطفة يمكن أن تقهر عاطفة ؟ . من الجائز أن يكون هذا الا اذا كان من الميسور أن يرتفع التزام جادة العقل الى مستوى عاطفى وتحمس . ان المعرفة الحقة بالخير والشر لا يمكن أن تكبح جماح أية عاطفة بقدر ما تكون المعرفة حقة ، بل يقدر ما تعتبر هذه المعرفة عاطفة (١٥٨) . ان تلك الحاجة ، وربما الرغبة فى الهاب العقل واثارته بعبارات تكللها التقوى والزمن بالتبجيل والاحترام ، هى التى أدت بسبينوزا الى الفكر الأخير الذى توج به عمله - وهو أن « الحب العقلى لله » يجب أن يلهم حياة العقل ويرفع من شأنها . وحيث أن « الله » فى رأى سبينوزا ، هو الحقيقة الأساسية ، والقانون الثابت الذى لا يتغير للكون نفسه ، فان هذا الحب العقلى لله ليس مجرد استرضاء مذل لسلطان جالس على عرش السديم ، بل انه التوافق الحكيم الواعى لأفكارنا وسلوكنا مع طبيعة الأشياء ونظام العالم . ان احترام ارادة الله ، والامتثال الواعى لقوانين الطبيعة شيء واحد . وبقدر ما يجد العالم الرياضي من رهبة ونشوة فى أن يرى العالم خاضعا لقواعد قياسية رياضية ، قد يجد الفيلسوف أعمق سرور فى تأمل عظمة كون يسير رابط الجأش فى تواتر القانون الكونى الشامل . وحيث أن « الحب لذة مصحوبة بفكرة علة خارجية (١٥٩) ، فان الحب الذى نستمدده من رؤية نظام الكون - وتكييف أنفسنا معه - يسمو الى حب الله الذى هو حياة ونظام الكل . وحينئذ يغمر حب الكائن السرمدى اللامتناهى ، يغمر الذهن تماما بالفرح والبهجة (١٦٠) » . ان هذا التأمل فى العالم ، كنتيجة لازمة لطبيعته - لطبيعة الله - هو المصدر الآخر للرضا والاطمئنان فى ذهن الانسان العاقل ، وهو يوفر له هدوء التفكير والارتياح الى القيود أو الحدود المعترف بها للحق المحبوب المقبول . « ان أعظم خير للذهن هو معرفة الله ، وأسمى فضيلة فى الذهن هى معرفة الله (١٦١) » .

وهكذا زاوج سبينوزا فى نفسه بين العالم الرياضي والمتصوف . وأبى أن يرى فى ربه روحا قادرة على مقابلة حب الانسان أو مكافأة الابتهالات والصلوات بالمعجزات ، ولكنه خص ربه بالعبارات الرقيقة التى ألهمت لآلاف السنين أبسط المتدينين المتحمسين وأعمق المتصوفين

فى البوذية واليهودية والمسيحية والاسلام ، ووجدوا فيها السلوى والراحة . ومذ قبع سبينوزا واهنا مقررورا وحيدا فى علياء فلسفته ، توافقا الى أن يعثر فى الكون على شيء يتقبل عبادته وثقتسه ، فان المهروطق الوديع ، الذى كان قد أبصر الكون رسما هندسيا ، انتهى برؤية كل الأشياء فى الله وفقدانها فى الله ، حيث أصبح « الملحد » النشوان بحب الله . مما أدى الى ارتباك الأجيال القادمة وحيرتها . ان الدافع الذى لا يقاوم للعثور على معنى فى الكون جعل النأى عن كل عقيدة يختم محاولته برؤية اله قدير ، وباحساس مثير رفيع بأنه كان قد بلغ الأبدية ، ولو للحظة واحدة .

#### ٨ - الدولة :

ان سبينوزا ، بعد أن كان قد انتهى من كتاب « الأخلاق » ربما أحس ، مثل معظم القديسين المسيحيين ، بأنه قد صاغ فلسفة لمنفعة الفرد وخلصه ، لا لتوجيه وهداية جماعة المواطنين فى دولة . ومن ثم فانه حوالى ١٦٧٥ تفرغ لدراسة الانسان « حيوانا سياسيا » ، وليطبق العقل على مشاكل المجتمع . وشرع فى تدوين شذرات « الرسالة السياسية » ، موطدا العزم ، كما فعل فى تحليل الانفعالات ، على أن يكون موضوعيا ينتهج أسلوب عالم الهندسة أو الفيزياء :

رغبة فى بحث مادة هذا العلم بنفس الروح الحرة التى ننتهجها بصفة عامة فى الرياضيات ، بذلت غاية الجهد فى الحرص على ألا أسخر من أفعال البشر أو أرثى لها ، بل على أن أتفهمها ، ولهذا الغرض نظرت الى انفعالات الحب والكراهية والغضب ، والحسد والطمع والحسرة وسائر ارهاصات الذهن ، لا فى ضوء رذائل الطبيعة البشرية ، بل باعتبارها من خواص الذهن ، وهى وثيقة الصلة به ، مثل الصلة الوثيقة بين الحرارة والبرودة ، والعاصفة والرعد ، وما اليها ، وبين طبيعة الجو (١٦٢) .

ومذ كانت الطبيعة الانسانية هى مادة علم السياسة ، فان سبينوزا أحس بأن دراسة الدولة ينبغى أن تبدأ ببحث الخلق الاساسى للانسان . وقد نفهم هذا بشكل أفضل اذا تيسر لنا أن نتصور الانسان قبل أن يعدل

التنظيم الاجتماعي من سلوكه ، بالقوة والأخلاقيات وبالقانون ، وأن نتذكر أن تحت خضوعه العام الكريه لديه لهذه المؤثرات التي تؤهله لبيئة اجتماعية ، لا تزال تضطرم بين جنبيه دوافع غير مشروع لم يكن يجد منها في « حالة الطبيعة » الا الخوف من القوة العدائية . وحذا هوبز وكثيرين غيره في القول بأن الانسان عاش يوما في مثل هذه الحالة ، وبأن صورته في هذه الوحشية الافتراضية تكاد تكون قائمة مثل صورته في « اللواياتان » تقريبا . وفي « جنة الشر » هذه كانت قوة الفرد هي الحق الوحيد ، ولم يكن ثمة شيء عدل أو ظلم ، صواب أو خطأ ، لأنه لم يكن هناك قانون ولم يكن ثمة شيء عدل أو ظلم ، صواب أو خطأ ، لأنه لم يكن هناك قانون أخلاقي . وبناء على هذا « كان قانون الطبيعة وأوامرها لا تحظر شيئا . . . ولا تقاوم الصراع أو الكراهية أو الغضب أو الخيانة أو بصفة عامة أي شيء توحى به الشهوة (١٦٣) » . وبمقتضى « الحق الطبيعي حينذاك ، أعنى بعملية الطبيعة ، متميزة عن قواعد المجتمع وقوانينه - يكون لأي انسان الحق فيما تمكنه قوته من اكتسابه أو الاستيلاء عليه ، ولا يزال هذا أمر مسلما به بين الأجناس وبين الدول (١٦٤) » . ومن ثم كان للانسان « حق طبيعي » في استغلال الحيوانات لخدمته أو لغذائه (١٦٥) .

ويلطف سبينوزا من هذه الصورة الوحشية بالايحاء بأن الانسان ، حتى في أول ظهوره على الأرض ، ربما كان يعيش بالفعل في جماعات اجتماعية . ومن حيث أن الخوف من الوحدة كان في كل الناس - لأن أي انسان في الوحدة لا يملك من القوة ما يدافع به عن نفسه ، ويحصل به على ضرورات حياته - فان هذا يستتبع ن ينزع الناس بالطبيعة الى تنظيم اجتماعي (١٦٦) . ومن ثم فان في الناس غرائز اجتماعية وغرائز فردية على حد سواء . وللمجتمع وللدولة جذور في طبيعة الانسان . وكيفما حدث هذا وحيثما حدث ، فان الناس والأسرات اتحدت في جماعات ، وحد آنذاك حق الجماعة أو قوتها من « الحق الطبيعي » للفرد أو من قوته . ولا ريب في أن الناس قبلوا هذه القيود على كره منهم ، ولكنهم قبلوها عندما عرفوا أن النظام الاجتماعي كان أقوى أداة للبقاء على الفرد ولتنميته وتطويره . وعلى ذلك فان تعريف الفضيلة بأنها أية صفة تعمل على البقاء - مثل « النزوع للمحافظة

على الذات (١٦٧) « - كان ينبغي التوسع فيه ( أى التعريف ) ليشمل أية صفة تعمل على بقاء الجماعة . ان التنظيم الاجتماعى ، والدولة على الرغم من تقييداتها ، والمدنية على الرغم من خداعها ، كل هذه هى أعظم المخترعات التى ابتدعها الانسان للمحافظة على ذاته وتنميتها وتطويرها .

ولذلك يستبق سبينوزا رد فولتير على روسو :

دع الهجائين يسخروا ما طابت لهم السخرية من شئون البشر ، ورجال اللاهوت يلعنوهم ، ودع المكتئبين يمتدحوا قدر طاقتهم الحياة الانعزالية القاسية الوحشية ، فليزدروا الانسان ويعجبوا بالوحوش ، فعلى الرغم من هذا كله ، سيجد الناس أنهم ، بالعون المتبادل ، وفى يسر أكثر كثيرا ، يستطيعون اعداد ما يحتاجون اليه . . . والانسان الذى يسير بهدى من العقل أكثر حرية من دولة يعيش فيها وفق القانون العام ، منه فى وحدة لا يخضع فيها لآى قانون (١٦٨) .

ويرفض سبينوزا كذلك الطرف الآخر من حلم « لا قانون » - بيوتوبيا الفوضوى الفيلسوف :

ان العقل يستطيع حقا أن يصنع الكثير ليكبح جماح الانفعالات والتخفيف منها ، ولكننا رأينا . . . ان الطريق الذى يحدده العقل نفسه شديد الوعورة ، ومن ثم فان الذين يقنعون أنفسهم بأن الجمهور قد يغيره يوما أن يعيش وفق أوامر العقل المجردة ، لا بد أنهم يحلمون بالبيضة الذهبية الوارد ذكرها فى الأشعار ، أو برواية مسرحية (١٦٩) .

وينبغى أن يكون هدف الدولة مهمتها تمكين أعضائها من أن يحيوا حياة العقل :

ليست الغاية القصوى للدولة أن تهيمن على الناس ، ولا أن تكبح جماحهم بالرهبة ، بل أن تحرر الانسان من الخوف ، حتى يعيش ويعمل آمنا مطمئنا كل الاطمئنان ، دون أن يلحق به أو بجاره أى أذى . وليست غاية الدولة أن تجعل من الكائنات العقلانية حيوانات ضارية وآلات

( كما هو الحال فى الحرب ) بل تمكين أجسامهم وأذهانهم من أداء وظيفتها فى امان ، ان غايتها أن توجد الناس ليعيشوا على العقل السليم الصادق ويمارسوه .. .. ان غاية الدولة حقا هى الحرية ( ١٧٠ ) .

ونتيجة لذلك يجدد سبينوزا دعوته الى حرية التعبير ، أو على الأقل حرية الفكر ، ولكنه استسلم مثل هوبز ، للخوف من التعصب والصراع الدينى ، فاقترح ، لا مجرد اخضاع الكنيسة للدولة ، بل أن تحدد الدولة أى المذاهب الدينية يلقن للناس .

وينتقل سبينوزا الى بحث الأشكال التقليدية للحكومة ، واذ أصبح وطنيا هولنديا متبرما يغزو لويس الرابع عشر لهولنده ، فان الملكية لم ترق فى عينيه ، وهاجم بشدة نظرية هوبز فى الحكم الاستبدادى المطلق :

المظنون أن التجارب تعلمنا أن وضع السلطة فى يد رجل واحد مدعاة للسلام والهدوء والانسجام ، لأن أى نظام سياسى لم يكتب له البقاء طويلا دون تغيير يذكر ، مثل النظام التركى ، على حين أن أى نظام لم يكن قصير الأجل تعتوره الفتن والمشاغبات سوى الدول ذات النظام الشعبى أو الديمقراطى . ولكن اذا كانت العبودية والوحشية والدمار تسمى سلاما ، لكان السلام أشد محنة تبتلى بها الدولة ... ان الاسترقاق . لا السلام ، هو الذى ينتج عن وضع السلطة فى يد رجل واحد . فان السلام لا يكمن فى عدم وجود الحرب ، بل فى اتحاد نفوس الناس وانسجامها ( ١٧١ ) .

وقد تكون الأرستقراطية « حكومة الصفوة » ممتازة ، لو لم تكن هذه الصفوة خاضعة للروح الطبقيّة والحزبية العنيفة وجشع الفرد أو الأسرة . اذا تجرد الأرستقراطيون أو الاشراف من كل الاهواء وكانوا لا يصدرن فى أعمالهم الا عن غيرة على المصلحة العامة ، لما كان ثمة دولة يمكن أن تقارن بالأستقراطية . ولكن التجربة تعلمنا علم اليقين أن الرياح تاتى بما لا تشتهى السفن ، أى أن الأمور تجرى على عكس ما نريد ( ١٧٢ ) .

وهكذا شرع سبينوزا فى أواخر أيام حياته وهو على سرير الموت يخطط آماله فى دولة الديمقراطية . ان الرجل الذى أحب جان دى ويت الذى قتله الرعاع ، لم تساوره أية أوهام بالنسبة للجمهور . أو أولئك الذين خبروا تقلب مزاج الناس ، كاد يتغلب عليهم اليأس ، لأن الناس تحكمهم العاطفة ، لا العقل ، لأنها تغلب على كل شيء ، وما أيسر أن يفسدها الجشع والتترف (١٧٣) . ومع ذلك « أعتقد أن الديمقراطية أقرب أشكال الحكم الى الطبيعة وأكثرها اتساقا مع حرية الفرد . وفيها لا ينقل أحد حقه الطبيعى أو يفوض به تفويضاً مطلقاً الى حد لا يعود له معه أى صوت فى أمور الحكم ، بل هو لا يفعل الا أن ينقله الى الأغلبية (١٧٤) » واقترح سبينوزا منح حق الاقتراع العام لكل الذكور فيما عدا القاصرين والمجرمين والأرقاء . واستبعد النساء لأنه رأى أنهن بحكم طبيعتهن وأعبائهن أقل صلاحية من الرجال للتداول والتشاور والحكم (١٧٥) . ورأى أنه يمكن تشجيع الموظفين الرسميين على السلوك القويم وانتهاج سياسة سليمة ، اذا « أمكن أن تؤلف الميليشيا ( القوات المسلحة ) من المواطنين وحدهم ، دون اعفاء أحد منهم لأن الرجل المسلح أكثر استقلالاً من غير المسلح (١٧٦) » . وأحس بأن رعاية الفقراء والمساكين التزام اجبارى على المجتمع بأسره (١٧٧) . وما ينبغى أن يكون هناك الا ضريبة واحدة :

الحقول والأرض كلها ، والبيوت اذا أمكن تدبيرها  
أن تكون ملكاً عاماً ، أى ملكاً لمن له حق الحكم فى الدولة ،  
وهذا بدوره يؤجرها للمواطنين مقابل ايجار سنوى ...  
وبهذا الاستثناء وحده ، دعهم أحراراً معفين من أى نوع من  
الضرائب فى زمن السلم (١٧٨) .

وفى اللحظة التى أقبل فيها على أثنى جزء فى رسالته اختطف  
الموت القلم من يده .

#### ٩ - سلسلة من التأثيرات

فى السلسلة الضخمة من الأفكار التى تربط تاريخ الفلسفة الى  
مجرى كريم واحد يتلمس فيه الفكر البشرى الحائر طريقه ، نجد منهج  
سبينوزا يتشكل فى عشرين قرناً وراءه ، ويسهم فى تشكيل العالم

الخديث . انه أولا ، بطبيعة الحال ، كان يهوديا ، وعلى الرغم من أنه كان محروما من الكنيس ، فانه لم يستطع أن يخرج عن هذا التراب الضخم ، ولا أن ينسى سنين تأمله في العهد القديم والتلمود وكثير من الفلاسفة اليهود . ولنعد بالذاكرة الى الهرطقات التي روعت انتباهه في ابن عزرا وابن ميمون ، وهاسادي كريسكاس ، وليفي بن جيرسون وأورييل أكوستا . ولا بد أن دراسته للتلمود ساعدت على شحذ الاحساس المنطقي الذي جعل من رسالة « الأخلاق » معبدا ممتازا للعقل . قال سبينوزا « ان بعض الناس » يبدأون فلسفتهم من الأشياء المخلوقة ، وبعضهم من الذهن البشري ، أما أنا فأبدأ من الله ( ١٧٩ ) . وتلك كانت الطريقة اليهودية .

ان سبينوزا أخذ القليل عن الفلاسفة الذين جرت التقاليد على أشد الاعجاب بهم ولو أنه في تمييزه بين عالم الأشياء العابرة وعالم الله ذي القوانين الأزلية . قد نجد صيغة أخرى لتفريق أفلاطون بين الوجودات الفردية ونماذجها الأصلية في ذهن الله . وأمكن تتبع تحليل سبينوزا للفضائل الى كتاب أرسطو « الأخلاق » عند نيقوماخوس ( ١٨٠ ) . ولكنه قال لأحد أصدقائه « لم يكن لأقوال أفلاطون وأرسطو وسقراط كبيرون عندى ( ١٨١ ) » . انه ، مثل بيكون وهوبز ، أثر ديمقريته وأبيقور ولوكريشيوس . وقد يرجع مثله الأعلى في الأخلاق صدى الرواقيين ، وقد ترن في آذاننا بعض نبرات ماركوس أوريليوس ، ولكنه كان منسجما كل الانسجام مع أبيقور .

ان سبينوزا دان للفلاسفة السكولاسيين بفضل أكثر مما وضع له . انهم تسربوا اليه عن طريق ديكارت . انهم كذلك - مثل توما الأكويني في « الرسالة الجامعة » الرائعة - كانوا قد حاولوا عرضا هندسيا للفلسفة ، وزودوه بكثير من المصطلحات ، مثل الجوهر ، والطبيعة الخالقة ، والصفة والماهية والخير الأسمى وكثير غيرها . ان قولهم بتعادل الوجود والماهية في الله ، أصبح ما قال به هو تعادل الوجود والماهية في الجوهر ، ومد الى الانسان ادماجهم العقل والارادة في الله .

وربما قرأ سبينوزا أعمال برونو ( كما يظن بيل ) ، وارتضى تمييز جيوردانو بين الطبيعة الخالقة والطبيعة المخلوقة . وربما أخذ التعبير

والفكرة عن كتاب برونو « المحافظة على الذات (١٨٢) » وربما عثر عند الايطالى على وحدة الجسم والذهن ، ووحدة المادة والروح ، ووحدة العالم والله ، ومفهوم المعرفة الأسمى ، بمعنى رؤية كل الأشياء فى الله - ولو أن المتصوفة الألمان لا بد نشروا هذا الرأى حتى فى المدينة التجارية أمستردام .

وعن طريق مباشر أكثر أوحى اليه ديكارت بمثل فلسفته ، ونفره وثبط من همته بتفاهات لاهوتية . وألهبت خياله محاولة ديكارت أن يجعل الفلسفة تتمشي مع أقليدس شكلا ووضوحا . وربما تبع ديكارت فى رسم قواعد لتوجيه حياته وعمله . واقتبس عن طيب خاطر وجهة نظر ديكارت فى أن أية فكرة لا بد أن تكون صادقة ، اذا كانت « واضحة متميزة » . وقبل وعمم رأى ديكارت فى أن العالم آلة من علة ونتيجة ، نابعة من دوامة بدائية قدما الى الغدة الصنوبرية ، واعترف بأنه مدين بالفضل لتحليل ديكارت للانفعالات (١٨٣) .

وواضح أن « لواياثان » هوبز فى ترجمته اللاتينية لقى ترحيبا كبيرا فى فكر سبينوزا ، وهنا صيغ مفهوم الآلية ( ميكانيكية العالم ) دون رحمة وبلا وجل . ان الذهن الذى فرق ديكارت بينه وبين الجسم ومنحه الحرية والخلود ، أصبح عند هوبز وسبينوزا خاضعا لقانون كونى عام ، وهو قابل لمجرد خلود غير ذاتى ، أو لا خلود مطلقا . ووجد سبينوزا فى « لواياثان » تحليلا مقبولا للاحساس والادراك والذاكرة والفكرة ، وتحليلا غير عاطفى للطبيعة الانسانية . ومن نقطة البداية المشتركة « للحالة الطبيعية » و « الميثاق الاجتماعى » انتهى المفكران كلاهما الى نتائج عكسية حيث انتهى هوبز من « دوائره الملكية » الى الملكية المطلقة ، وانتهى سبينوزا من الوطنية الهولندية الى الديموقراطية . وربما كان هوبز هو الذى وجه اليهودى الوديع الى مكيافللى ، فيشير اليه بأنه « الفلورنسى البالغ الذكاء » ، ومرة أخرى بأنه « أعظم عبقرى ... بعيد النظر (١٨٤) » ولكنه تجنب الخلط بين الحق والقوة ، معترفا بأن هذا أمر يمكن التجاوز عنه بين الأفراد فقط فى « حالة الطبيعة » وبين الدول قبل سن قانون دولى فعال .

وخفف سبينوزا من كل هذه التأثيرات وصاغها فى كيان فكرى يبعث الرهبة فى منطقته واتساقه ووحدته البارزة . وكان ثمرة بعض

تصدع فى المعبد ، كما أشار الأصدقاء والأعداء على السواء . وفى براعة كبيرة انتقد أولدنبرج البديهيّات والقضايا التى صدر بها كتاب الأخلاق ( ١٨٥ ) . وتناولها أوبرويج بتحليل دقيق مفصل يتسم بالدقة الألمانية ( ١٨٦ ) . وكان المنطق مشرقا ، ولكنه استنتجى الى حد مرهق ، وكان ، ولو أنه مبنى على خبرة شخصية ، عبارة عن براعة الفكر ترتكز على اتساق ذاتى ، لا على حقيقة موضوعية . ان وثوق سبينوزا باستنتاجه وتفكيره ( والا فيم يسترشد ؟ ) كان التوقح الوحيد فى عمله . لقد عبر عن ثقته فى قدرة الانسان على فهم الله ، أو الحقيقة الأساسية أو القانون الكونى ، وكم من مرة أعلن عن اقتناعه بأنه أثبت نظرياته فوق كل شك أو جدل أو غموض أو لبس ، وتحدث أحيانا فى لهجة توكيد لا يتأتى صدورها عن رذاذ من الزبد تحليلا وتفسيرا للبحر . وأية جدوى اذا كان كل المنطلق وسيلة عقلية أو آلة موجهة مساعدة للذهن الباحث ، لا كيان العالم ؟ وهكذا يختزل منطق الجبرية الذى لا مفر منه ، الوعى الى ظاهرة ثانوية ( كما اعترف هكسلى ) لاحقة ، ظاهر أنها زائدة غير ضرورية لعمليات سيكولوجية ، قد تجرى بدونها بمقتضى ميكانيكية أو آلية العلة والنتيجة . ومع ذلك ليس ثمة شيء يبدو حقيقيا ، أو شيء يبدو مثيرا ، أكثر من الوعى . ويبقى اللغز الأكبر بعد أن قال المنطق كلمته .

وربما أسهمت هذه الصعوبات فى عدم شعبية فلسفة سبينوزا فى أول قرن مضي بعد وفاته . ولكن أشد الاستياء أنصب على نقده للكتاب المقدس والنبوءات والمعجزات ، وعلى مفهومه لله جديرا بالحب ولكن غير مجسم متصام لا يريد الاصغاء . واعتبر اليهود ابنهم خائنا لقومه ، وصب المسيحيون عليه اللعنة شيطانا بين الفلاسفة ، مسيحا دجالا سعى لسلب العالم من كل معنى ورحمة وأمل ، بل أن المهرطقين أنفسهم أدانوه واستنكروه . ونفر بيل من وجهة نظر سبينوزا فى أن كل الأشياء وكل الناس أشكال من نفس الجوهر الواحد أو العلة الواحدة أو الله ، وحينئذ - كما قال بيل - فان الله هو العامل الحقيقى فى كل الأفعال ، والعلة الحقيقية فى كل الشرور ، وكل الجرائم . وكل الحروب ، حتى اذا ذبح أحد الأتراك رجلا من المجر ، كان الله هو الذى قتل نفسه ، ثم احتج بيل ( ناسيا ذاتية الشر ) على أن هذا « أسخف وأبشع فرضية ( ١٨٧ ) » وكان لبينتز ، لعقد من السنين ( ١٦٧٦ - ١٦٨٦ ) متأثرا أشد التأثير بسبينوزا . ان نظرية « الجواهر الروحية

المونادولوجيا ( عناصر الوجود الأولية ) « قد يرجع بعض الفضل فيها لسبينوزا . وأعلن ليبنتز يوما أن شيئا واحدا في فلسفة سبينوزا أزعجه - نبذ فكرة العزل النهائية أو تدابير العناية الالهية في عملية الكون ( ١٨٨ ) . وعندما علت صحاح الاستنكار ضد « الحاد » سبينوزا انضم اليها ليبنتز « حماية لشخصه » .

ان لسبينوزا نصيبا متواضعا ، يكاد يكون خفيا ، في تنشئة الاستنارة في فرنسا ، فان زعماء هذه الثورة العنيفة استخدموا نقد سبينوزا للكتاب المقدس سلاحا في حربهم ضد الكنيسة ، وأعجبوا بمذهب الجبرية عنده ، « وبأخلاقه » القائمة على المذهب الطبيعي ، وبرفضه للتدابير في الطبيعة ، ولكن حيرتهم مصطلحاته الدينية ، والتصوف أو المذهب الباطني البارز في كتاب « الأخلاق » ، وقد نتخيل رد الفعل في فولتير أو ديدرو ، وفي هلفيشيوس أودي هو لباخ ، لعبارات مثل « ان الحب الروحي العقلي لله هو نفس الحب الذي يحب به الله نفسه ( ١٨٩ ) » .

وكانت الروح الألمانية أكثر استجابة لهذا الجانب من فكر سبينوزا . واستنادا الى حديث رواه فردريك جاكوبي ( ١٧٨٠ ) لم يعترف لسنج بأنه لم يكن طوال سني نضجه متأثرا بسبينوزا فحسب ، بل كذلك أنه « لا فلسفة الا فلسفة سبينوزا ( ١٩٠ ) » ان التعادل بين الطبيعة والله ، ذلك التعادل القائم على مذهب وحدة الوجود ، هو بالتحديد الذي اهتزت ظريا له ألمانيا أثناء الحركة الرومانتيكية بعد أن جرت حركة الاستنارة في عهد فردريك الأكبر مجراها . وكان جاكوبي ، بطل « فلسفة الوجدان » الجديدة من بين أوائل المدافعين عن سبينوزا ( ١٧٨٥ ) وثمة ألماني رومانتيكي آخر ، هو نوفاليس ، أطلق على سبينوزا « الثمل بحب الله » . وقال هردير بأنه « وجد في رسالة الأخلاق » التوفيق بين الدين والفلسفة . وكتب شليماخر ، رجل الدين المتحرر ، عن « سبينوزا المقدس المحروم من الكنيس ( ١٩١ ) » و « وارتد » جيته الشاب عندما قرأ « الأخلاق » لأول مرة ، ومنذ ذلك الوقت غلبت السبينوزية على شعره ( غير الجنسي ) ونثره . ويرجع بعض الفضل الى تنسّمه جو الهدوء في كتاب « الأخلاق » ، في انصرافه عن الرومانتيكية المتطرفة الجامعة عند جوتز فون برليخنجين وآلام فرتر الشاب ، الى الاتزان

المهيب في أخريات حياته . وعوق كانت مجرى هذا التأثير لبعض الوقت . ولكن هيجل صرح بأنه « لكي تكون فيلسوفا ينبغي أول أن تكون سبينوزيا » ، وعبر من جديد عن اله سبينوزا بأنه « العقل المطلق » وربما تسرب شيء من « نزعة المحافظة على الذات » عند سبينوزا الى « ارادة الحياة » عند شوبنهاور ، و « ارادة القوة » عند نيتشه .

ولمدة قرن من الزمان عرفت انجلترا سبينوزا عن طريق الهرطقة أساسا ، واستنكرته غولا بشعا بعيدا عنها . وأشار اليه ستلنجنفلت (١٦٧٧) بصورة غامضة « مؤلفا متأخرا أسمع منه أن تمتع بشعبية كبيرة بين كثير ممن ينادون بأى شيء يتصل بالالحاد » . وكتب الأستاذ الاسكتلندي جورج سنكلير ( ١٦٨٥ ) عن « حفنة شاذة من الرجال ممن يشايعون هوبز وسبينوزا ، يستخفون بالدين وينتقصون من قدر الأسفار المقدسة » . وتحدث سيرجون ايفلين عن « الرسالة اللاهوتية السياسية » بأنها « كتاب مخز ، عقبة فاجعة في طريق الباحثين عن الحقيقة المقدسة » أما بركلي ( ١٧٣٢ ) فانه بينما عد سبينوزا من المؤلفين الضعاف الأشرار ، قال أنه « زعيم كبير للكفرة الحديثين ( ١٩٢ ) » . وفي ١٣٩ « رتاع هيوم - وهو من أتباع مذهب اللا أدرية - في حذر من الفرضية البشعة » التي جاء بها « ذلك الملحد المعروف ، سبينوزا الذي ساءت سمعته في كل الانحاء ( ١٩٣ ) » . ولم يصل سبينوزا الى اذهان الانجليز الا عند ظهور الحركة الرومانتيكية عند انصرام القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، وحينئذ أوحى ، أكثر من أى فيلسوف غيره ، بالميتافيريقا العنيفة القوية عند وردزوث وكوليردج وشللى وببيرون . واقتبس شللى من « الرسالة اللاهوتية السياسية في حواشيه الأصلية في « ملكة الأحلام كوين ساب » وبدأ ترجمة للرسالة ، وتعهد بيرون بكتابة مقدمة لها . ووقع جزء من هذه الترجمة في يد ناقد انجليزى حسبها من تأليف شللى نفسه فقال عنها « تفكير أحد صبية المدارس ، فج لا يصلح للنشر اطلاقا » . وترجم جورج اليوت « الأخلاق » بعزيمة صادقة . واعترف جيمس فرود ، وماتيو آرنولد بتأثير سبينوزا على تطورهما العقلى ، ويبدو أن الدين والفلسفة أثبت كل نتاج الانسان على مر الزمان . ان بركليز مشهور لأنه عاش زمن سقراط .

اننا نحب سبينوزا بصفة خاصة بين الفلاسفة ، لأنه كان كذلك

قديسا ، ولأنه عاش الفلسفة كما كتبها . ان الفضائل التي مجدتها الديانات الكبرى كرمت وتجسدت في المنبوذ الذي لفظته كل الديانات ، حيث لم تجزله أية ديانة أن يصور الله على أسس يمكن أن يسيغها العلم . ان نظرة الى الوراثة ، الى هذه الحياة الموقوفة على البحث ، والى هذا الفكر المكثف ، لتجعلنا نحس بأن فيهما عنصرا من النبل يشجعنا على أن نحسن الظن بالانسان . فلنسلم بنصف الصورة المرعبة التي رسمها سويقت للبشرية ، ولنتفق على أننا في كل جيل ، وفي كل مكان تقريبا ، نجد الخرافة والنفاق والفساد والقسوة والجريمة والحرب : فلنضع في مقابل هذا في كفة أخرى ، ثبتا طويلا بالشعراء والملحنين والفنانين ورجال العلم والفلاسفة والقديسين . ان ذلك الجنس البشري يعينه ، الذي ثار منه سويقت المسكين عجز جسده ، هو الذي كتب روايات شكسبير ، وموبيقى باخ وهاندل ، وقصائد كيتس الغنائية ، وجمهورية أفلاطون « وقواعد » نيوتن . و « أخلاق » سبينوزا ، وهو الذي شاد البارثينون وسقف كنيسة سستين ، وهو الذي حمل المسيح وأعزه ودلله ، ولو أنه صلبه ، ان الانسان فعل كل هذا الذي أسلفنا ، فيجدر ألا يدع اليأس يتطرق الى نفسه .